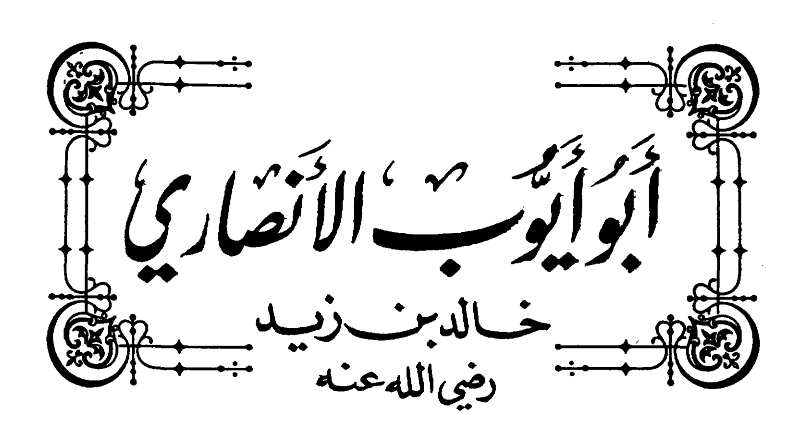
أبو أيوب الأنصاري


al-maktabeh
www.
.com
مكتبة
المهتدين
http://al-maktabeh.com



من المدينة إلى أسوار القسطنطينية

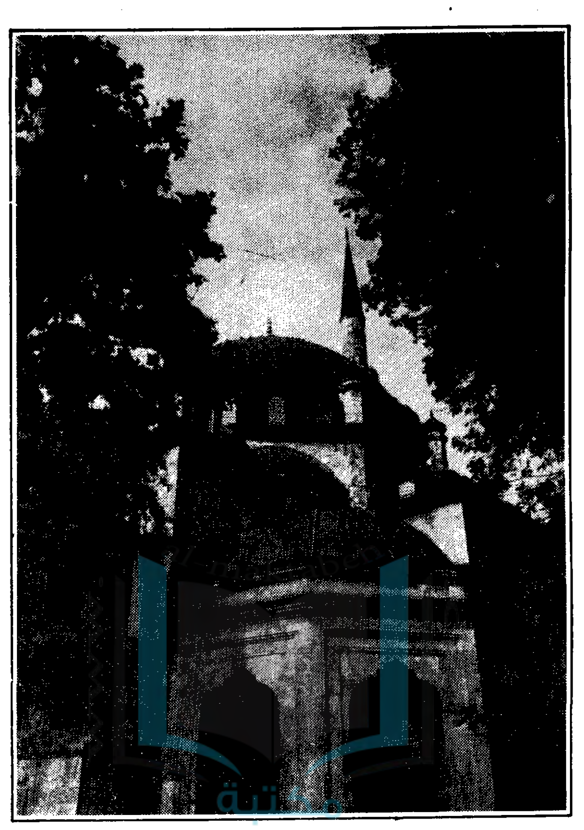
محمد علي قطب



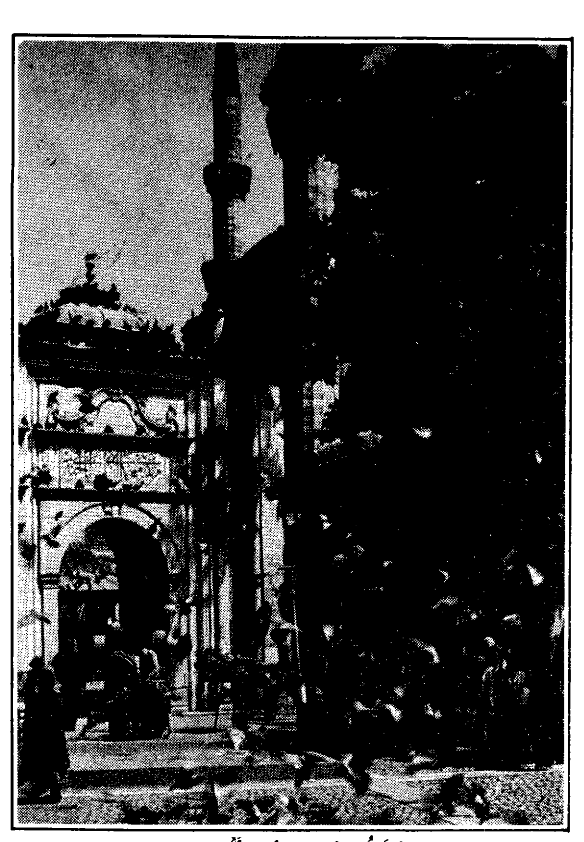
بيروت - لبنان



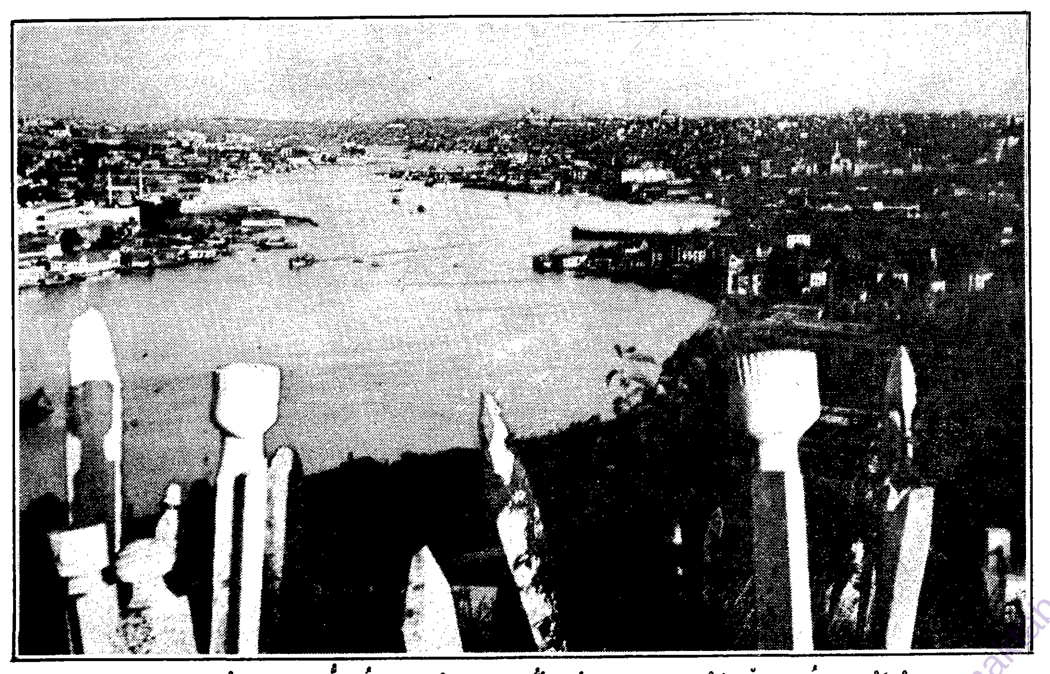
الطَبعَة الأولى
١٤١٤هـ - ١٩٩٣م



قُبَّةُ ضريح «أبي أيُّوب»
- رضي الله عنه -



مَدْخَلُ مَسْجد «أبي أَيُّوبٍ»
- رضي الله عنه -



شواهِدُ بَعْض القُبور عِنْد مَدْخل ضريح «أبي أيُّوب» وَمَسْجِده، تُطِلُّ على «القرْنِ الذهبي»

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

إن الحمد لله، نحمده تعالى ونشكرهْ، ونتوب إليه ونستغفره، ونعوذ به من شرور أنفسنا وسيئاتِ أعمالنا، من يهده الله فلا مضلَّ له، ومن يُضلل فلا هُادي له.

ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملْك وله الحمد يُحيي ويميت وهو على كل شيْءٍ قدير، ونشهد أن سيّدنا ونبيّنا «محمداً» عبدُ الله ورسُوله، إمام المجاهدين، وخاتم النبيين أرسله الله بالهُدى ودين الحق ليُظهِرَهُ على الدين كُلّه فَبَلَّغ الرسالة وأدّى الأمانة ونَصَحَ الأمّة، تركنا على المحجَّة البيضاء ليْلُها كنهارها، لا يضِلُّ عنها إلا زائغ، صلوات الله وسلامُه عليه وعلى آله وصَحْبه ومن آهْتَدى بهدّيهِ إلى يَوْم الدين.

وبعد،

فإن مرور النبيِّ ﷺ من «قُباء» ـ حَيْثُ نزل أوّل ما نَزَلَ يوم هجرتِهِ الشريفة ـ حتى بلوغه المدينة، بكثيرٍ من منازل أَهْلها

كُلّهُم يُحاوِلُ أَنْ يمسك بزمام ناقتِه (القصْواء) داعياً إياهُ ﷺ أَنْ يَنزل في ضيافَتِهِ ليْحظى بالشرف العظيم، ثم قَوْله ﷺ لهم جميعاً: دعُوها فإنها مَأمورة!!!

حتى نَزَلَتْ في مَرْبدٍ لـ «سَهْل» و«سهيْـل آبنيْ عمرو»، بركتْ هناك للمرَّة الأولى، فآختـار «عليه الصـلاة والسلام» المـوقع ليكُـونَ مسجـده وحُجـرات أزواجِـهِ، وآشتـراهُ من الغلاميْن اليتيميْن.

ثم انـطلاقـةُ «القصْـواء» بـاتِّجــاه بـاب دار أبي أَيُّــوب الأنصاري» ـ «خالد بن زيْد» ـ رضي الله عنه ـ، فكان عليه الصلاة والسَّلام ـ ضيْفاً على «أبي أيوبٍ» طوال عِدَّةِ أَشْهُرٍ، ريْثما تَمَّ بناء المسجد والحجرات.

كُلَّ أولئك ـ عزيزي القارىء ـ ليس أموراً عادِيَّة، بل هي مؤشرات سماويّة علويَّة، تَسْتَدْعي النَّظر والتوقُّف، والتأمُـل والدراسة.

ثُمّ إن رِحْلة «أبي أَيُّوب» على مدى سنوات عُمره، ومَثْواهُ عند أَسْوار «القسطنطينيـة» مجاهـداً في سبيل الله وغـازياً، وبالصُّورة والكيفيَّة التي تَمّتْ عليها، تَسْتَدْعي أيضاً مِنّا إعادة النَّظر والاعْتِبَار.

خصوصاً في حقيقة الجهاد، من غير زيْفٍ ولا تضْليل، ولا تمْويه، حتى تستشعر أمةُ الإسـلام في القرْن العشـرين

مدى البوْن الشاسع بَيْنها وبَيْن إسلامها.

ولتُدْرك مقالة «عليّ» كرَّم الله وَجْهَهُ:

(ـ ما ترَكَ قوْم الجهاد إلّا ذلُّوا...)

هذا ما دعاني إلى معاوَدةِ النظر ـ بحقّ ـ في سيرة «أبي أيُّوب» ـ رضي الله عنه ـ كَرمْزٍ من رمُوز السابقين الفائزين، عسى الله تعالى أَنْ يجعل شخصيته تتفاعل في النفوس والمقتول والمغلوب، فيعَدْد لنا الخيرْ والكرامة، والعزَّة المرجُوَّة.

فهو وحده أكرم مسؤول وخير مأمْول،

والحمد لله ربّ العالمين

صيدا في

١٤١١ هـ غرّة شوال

توطئة

«أيوب» سُلْطان!!؟

إنّـه لَقَبُ الشُّهْرة لـ «أبي أَيُّـوبٍ الأنصاريّ» ـ رضي الله عنه ـ، عِنْد التُّرْكِ جميعاً.

ضريحُهُ وَرَمْسُهُ مَعْلَمٌ من معالم مدينة لآِستانة (استانْبُول) الأثـريَّة والسيـاحيَّة، شـأن «آيا صُـوفيـا» ومسجـد السُّلْطان «أحمـد» ـ الجـامـع الأزْرَق ـ مَتْحف «تُـوبْ كـاپُـو» وقصـر «ضولمه بُهْجه» وحدائق قصر «يَلْدِزْلار»، وغيرها. إلاّ أنه يفوقها جميعها من حَيْث القداسة والإحْترام.

زُرت المكانَ وقَرَأتُ الفاتحة، وَدَعَوْت . . .

واسْتَرجَعْتُ الذكْرى الْعَطِرة، والُصحْبَة الكريمة الطاهرة؛ ومرَّتْ بِذِهْني رِحْلَةُ حياة «أبي أَيُّوب» ـ رضي الله عنه ـ، طُولاً وَعَرْضاً، وَعُمْقاً وآرْتِفاعاً و . . . سُمُوّاً.

وكـان أكْثَرُ مـا شَدَّني وسَيْـطَرَ على كياني، عَقْلي وقَلْبِي

وَجـوارِحي، المسـافَـةُ الشـاسِعَـةَ بَيْنَ «المـدينـة المنوَّرة» و«القسنطنطينية»، ومئات الأميالِ، بل آلافها، التي تفصل بَيْنَهُما، فإنها وإن كانت بالقياس الماديّ تَعْنِي الكثير الكثير، إلا أنَّها في ميزان الإيمان وصفاء النفس والجهاد في سبيل الله، تَعْني الأكْثر والأَعْظم، والأَوْفَرَ تقديراً عِنْد الله تعالى.

وتـذكَّرْتُ وصيَّـةَ «أبي أيُّوب» ـ رضي الله عَنْـه ـ لقـائـد الجيْش «يزيد بن معاوية بن أبي سُفْيان» الذي كان يعيشُ في بلاد الرُّوم غازياً وفاتحاً:

ـ إنْ لا يؤخِّرهُ عن هَدَفِهِ مَرَضُ «أبي أيُّوبٍ»، بَلْ يَحْمِله معه ويُتابعْ جهادَهُ، وحَيْثُما وافَتْه المنيَّةُ واراهُ الثرى.

ثم كانَتْ أسوار «القُسْطنطينية» محطَّتـه الأخيرة في رِحْلَةِ الحياة الدُّنيا، والجهاد في سبيل الله.

☆ ☆ ☆

رأيْتُ في داخل المسْجد أَطفالاً صغاراً في عُمْر الزُّهُور النَّضِـرَةْ، قد أُلْبِسُـوا أثوابـاً عَسْكَرِيَّـة: سُتْرَةٌ تَعْلُو صَـدْرهـا الأَوْسِمة، وقُبَّعةٌ مُزَيَّنة بالشرائط الـزاهية الألْـوان ترمـزُ إلى الرُّتْبة!!!

وفي يَـدِ كُلّ منهم عصـا (عصا المـاريشـاليَّـة)، كـأنَّهـا الصَّوْلجانُ!!!

كَانُوا جُلُوساً حَوْل إمام المسْجد في حلقةٍ، يَسْتَمعُون إلى

وَعْظِهِ وإرشادِهِ، يَنْصِتُون بأَدَبٍ بالغٍ واَحْتَرامٍ جمٍّ.

وسَأَلْتُ مُسْتفْسِراً عن تِلْك الظاهِرَةِ ومعناها، والغرضَ منها، فقيل لي بأَنَّها مراسِمُ تَقْلِيديَّة تُتَّبَعُ في حَفْلِ الختِان، لِمَنْ فاتَتْهُم السُّنَّةُ في أيَّام ولادتهم الأولى؛ أما مَسْجِدُ «أبي أَيُّوب» فهو محطُّ تَبَرُّكَهم واسْتِئْناسِهِم.

☆ ☆ ☆

وشهدّتُ في المسْجِدِ صلاة جنازةٍ أَيْضاً، يُؤْتى بها من مختلف أنحاء «استانْبُول»، مَهْما بعُدَتِ الشقّة، ومهْما طالت المسافَةُ.

والهدفُ معلوم.

والغايَةُ عميقَةُ الجذور، ذات أصالةٍ وَنُبْلٍ، وَبركَةٍ... وَخَيْرٍ.

☆ ☆ ☆

وَلَكِنْ...

من أَيْن أتى لـ «أبي أَيُّوبٍ» ـ رضي الله عَنْه ـ لَقَبُ السُّلْطان؟؟

ولماذا اَخْتُصِرَتِ الكُنْية فقيل «أَيُّوب» بَدَلاً من «أبي أيُّوب»؟؟

يَقُول الدكتور «حُسين مُجيب المصْري» في كتابِهِ (أَبُو أَيُّوب الأنصاري عند الْعَرَب والتُّرْك)[1]:

---

(١) ص (١٤).

من غير شَكّ أَنَّه (أي: أبا أَيُّوب) بَلَغَ عِنْد التُّرْك من سُمُوٍّ الْقَدْر وجلالة المنزلة وَعِظَم الشَّأْن واتساع الشُّهـرةَ شأواً يَتَعَسَّرُ أَوْ يتَعَذَّر معه علينا أَنْ نجدَ لَهُ ما يُضاهيه ويُدانيه عن العرب والْفُرْس، فَهُمْ يِسَمُّونَهُ «أَيُّوب سُلْطان».

وسُلْطان: لَقَبٌ يُـطْلَقُ على قِلَّةٍ من أعـاظم الصُّـوفِيـة، ويُسْتَفَادُ من معْناه أنَّ عظيم الصُّوفيَة له من المنزلةِ في العالم الروحانيّ ما للسُّلْطانِ الحاكم في العالم الجسماني، وكأَنَّهُ لم يَهْتَدُوا إلى لقبٍ للتقدير والتوقير أشرف من هذا كي يُعبِّروا به عن إجّلالهِم لشَأْنِهِ، وإن لم يكُن «أبو أيُّوب» من التصوُّف في كثيرٍ ولا قليل.

☆ ☆ ☆

ويقـول عَنْه أقـدم مؤرِّخ أوروبي للدوّلة العثمـانية: أنـه الأعلى في المقام، والأجْدر بالإجْلال والإحترام بَيْن ثماني أَبْطالٍ ضربُوا بحصار على القسطنطينية[١].

وهـذه (السلطنة) الصـوفيـة، التي أُضْفيَتْ على شَخْص «أبي أَيُّوبٍ» ـ رضي الله عنه ـ؛ سَوْف يكونُ لنا معها حديثٌ ووقْفةٌ ـ إنْ شاء الله تعالى ـ.

☆ ☆ ☆

(١) Hammar - Purgstall.

«الْعُثْمانِيُّونَ» والإسلام

«العثمـانيُّون»: هُمْ أبنـاءَ قبيلة «قَابي خـان»، من قبائـل «الخَزَر»، بَدأتْ تتحرَّك شَطر الْغَرْب عندمـا زحف المغول تَحْتَ قيادَةِ «جنكيز خان» وَآجْتَاحُوا «إيران» في بداية القرْن السابع الهجري.

وكُلّما زَحَفَ «المغول» شَطرَ العَرْب ابْتَعَـدَ التُّرْك عنهم، وشَـرَعُـوا يَتَعَـرَّفُـونَ إلى ديـار الإسـلام وفي جُمْلتهم قبيلة «قـابي خان» برئاسةِ «سُلَيْمان شاه»؛ وقد قَدِمت هذه القبيلة «إلى كَرْمان» وَشَـاركت السلطان «جلال الـدين الخوارزمي» حُروبَهُ ضِدَّ «المغول».

وعندما دارت الدائرة على السُّلْطان «جلال الدين» وتَفَرَّقَتْ أَجْنادُهُ، وَلّى «سُليمان شاه» وجْهَهُ شَطر «كُرْدُسْتان»، ثم رحل عنها إلى «أَرْزنجان» حَيْثُ المراعي الخضْراء، والبُعْـد عن مسارِحِ القتـال؛ وَلَبثَ «سُلَيْمـان شاه» وقـومه في مقـرهم الجديد سنين عَدَداً، حتّى بَلَغَهُ مَوْت «جنكيزْ خان»، وَظَنَّ أَنَّ

الخطر المغوليّ قد زَال، والبلاءُ قَد ٱنْقَشَعَ، سَاوَرَهُ الحنينُ إلى العَوْدَةِ إلى مَوْطنه السابق مع قبيلتِهِ التي كان عَدَدها زهاء خمسمائة ألف نسْمة.

وهكذا...

رأى «سُليمان شاه» أن يعودَ برجالِهِ إلى نجادِ آسيا الوُسْطى بعد سُكُونِ العاصِفَةِ المغوليَّة، وآرْتحـال أُمرائهم إلى «مَـرَهُ مَورْم» عاصمتهم لمبايَعَةِ من يَخْلُفُ «جنكيز خان» في زعامة «المغُول»، لكنه غرِق عند مخاضةٍ على نَهْر «الفُرات»، قُرْب مدينة «حلب». عِنْد قَلْعةِ «جَعْبَر»، وذلك عـام (٦٢٩ هـ) - (١٢٣١ م)، قبل أن يبلغَ غايته، ولا يزال قبره هناك، معروفاً بإسم: «تُرْك مزاري»، أي: مزارُ الأَتْراك.

☆ ☆ ☆

والظاهر من وقائع التاريخ ومُجْريات الأحْـداث أَنَّ أوْلاد «سُلَيْمان شاه» لم يكُونوا كُلُّهم على رأي والدهم في الرِّحْلَةِ إلى «خُراسان»، ومنها إلى نجادِ «التـركستان» - في أواسط آسيا -، لأنهم لم يلْبَثُوا أن ٱنْقَسَمُوا عقب موْتِهِ، فَأَصرَّ أكبر الأولاد ومعـه تالي إخْـوَتِهِ على مـواصلةِ السَّيْـر إلى غـايـةِ أبيهم...

فَتَبعهم أكثر العشائر، في حين آسْتَدار «أُرْطُغْرُل» وأَخُوهُ الأَصْغَرُ «دِيْندار» بِمَنْ آثَرَ البقَاءَ معَهُما من الأسَر التركيَّة التي

لم تكن تعدُّ الأرْبَعْمائة. . . وآتْجَهُوا إلى بلاد آسيا الصُغْرى من جديد.

☆ ☆ ☆

وبيْنما هم سائرون على مَقْرِبةٍ من حُدُود دَولـةِ سلاجقـةِ الروم وقع نَظَرُهم على جَيشَيْن مُتلاحمين، غيـر متكافئيْن، يَقْتَتِلان.

فآنْضَمَّ «أرطغْرُل» برجالِهِ إلى الجيْش الذي كـاد يَنْهَزِم، فـآنْتَصَـر بِهِم على جَيْشٍ من المغـول بقيـادَةِ «أوكْتـاي» - أَقْطاي - إبن «جنكيز خان».

وكافَأ «علاءُ الدين السَّلْجُوقِي»- سُلْطان «قُونية» - مُنْجِدَهُ «أَرُطغْرُل». فَأَقْطَعَهُ أَرْضاً واسعة، وبالَغَ في الْبَذْلِ له إعْتِرافاً مِنْهُ بِحُسْنِ بلائِهِ معه ضِدَّ أَعْدائِهِ، فَجَعَلَهُ أميراً على مقاطعة «أَسْكي شَهْر» ولقَّبه بـ «سُلْطان أُوني»، أي: مُقدِّمة السُّلْطان.

وَآتَّخذ الأميرُ الجديدُ: «الهلالَ» - شارَةَ سيِّده السَّلْجُوقي - شعاراً له على أَعْلامِهِ وَبيـارِقِهِ، وَهُـو الرَّسْم الـذي لا يزال تخفق بِهِ رايات التُرْك.

☆ ☆ ☆

وفي عـام (٦٥٦ هـ) (١٢٥٨ م) وُلِد لِـ «أَرْطغـرُل» إبْنه «عُثمان»، الذي تَنْتَسِبُ إليْه الدَّوْلَةُ العُثْمانية.

وَعِنْدما آنتزَع «عثمان» في صباهُ قَلْعة «قرَجَهُ حِصار» وما

حَوْلها من الدَّوْلة «البيـزنطيَّـة» كافَـأَهُ السُّلْطانَ«علاء الـدين» الثالث ـ سُلّطان «قُونْية» ـ على ذلك بأَنْ رقّاه إلى رُتْبة الأمراء، وَأَرْسَلَ لَهُ لواءً أَبْيض وآلات الْعَزْف، ، ومَنْشُـوراً بإمارته.

وبَيْنما كان «عُثمان شاه» يُواصِلُ تقدُّمه في القسم الشمالي من آسيا الصُّغرى داخل الحدود البيزنطيَّـة ويُقسِّم فُتُوحـاتِهِ على أولادِهِ وقَوْمه، إذ تَقدَّم المغُولُ بقيادَةِ «غازان خان» إلى آسيـا الصُّغـرى من جـديـد، وكـان ذلـك سنـة ٦٩٩ هـ) (١٣٠٠ م). فاّضطر آخر سلاطين السلاجقة إلى أن يَلْجأَ إلى الأمبراطور البيزنطي هَرَباً، لكنَّ الإمبراطور غَـدَرَ بِهِ وَقَتَله، فكانت فرصة مؤاتية لِـ «عثمان شاه» أَنْ يَسْتَقِلَّ بالإمارة.

ولم يلبث أَنْ ضَمَّ إليْه الإمارات الأُخرى، وصار سُكانُها جميعاً يُعْرفُون بِـ «العُثمانييّن».

✡ ✡ ✡

ضَرَب «عثمان» السَّكة بآسْمِهِ، وأجرى الخطبة له، وتسلَّم في حميَّةِ الشيخ «أوْبالي» ـ شيخ الـطرق الصوفيـة ـ منطِقَـةَ الجهاد[1] بوصْفِهِ غَازِياً مجاهداً في سبيل الله.

وآتَخذَ من «بني شَهْر» ـ أي: المدينة الجديدة ـ عاصمةً لـه، وسمي نفسـه: «بـادِشاه آل عثمـان»، أي: سلطان العثمانيين.

---

(١) المِنْطقة: الحزام.

وصـار من مـراسم وعـادات السـلاطين العثمـانيين في «إستانبول» ـ فيما بعد ـ أن يتقلَّدوا سيف «عُثمان» مِنْ قِبَلِ إمام مسجد «أبي أَيُّوبَ الأنصاري» ـ رضي الله عنه ـ حَيْثُ يَتمُّ البيّعة لهُم.

وأخذ «عثمان» يُنَظِّم أملاكه ويوسّع نطاقها، حتى بلغت فُتُـوحاتُـه «البحْر الأسْـوَد» و «بَحْر مَـرْمره»، وجعـل يقتطع الأراضي «البيزنطية» حتى لم يَبْقَ أمامَهُ غير مدينة «بْرُوسَّه»، وهي التي فتحها قبْل وفاتِهِ إبْنه «أِورْخان» بعد حصارٍ طويل، فصارَتْ حاضِرَة الدوّلة، وثوى فيها «عُثمان» في مَقبَرَةٍ فَخْمةٍ بعد وفاتِهِ.

☆ ☆ ☆

وسرعان ما شَيَّد في «بـروسَّه» مُنشـآتٍ إسلاميـة رائعة، وصارت قبلةً لجميع الأتراك القادمين من نجادِ آسيا الوُسْطى.

☆ ☆ ☆

وآمْتاز عصر «عثمان» بأنَّه جعل المسلمين من أَهْلِهَا من التُرْك أُمَّةً واحدة، كذلـك دَخَلَ مـع الترك عنـاصر مختلفـة وشعـوب مُتَباينـة من «الإغْريق) و (المجـريّين) و (البْلغـار) و (الألْبـان) و (الصقاليـة)، وجعـل من هؤلاء وأولئـك أُمَّـةً واحدة، تمْتاز بالقوّة، وأَصْبَحَ إسْم «عثمان» رمْزاً لها وشعاراً.

وكما أَنْشأَ «عثمان» الأُمَّة العثمانية، جعل إبْنـه «أُورْخان»

(٧٢٦ ـ ٧٦١ هـ) (١٣٢٦ ـ ١٣٥٨ م) من تلك الأُمّة (دَوْلةً) تقوم على أُسُس إدارية وحرْبيَّة، وطيدَةَ الأرْكَان.

وآنتقل الجيش العثماني من النظام القبليّ إلى نظام حرْبي حديث مُمْتاز، وأَضْحى أكبر قُوَّةٍ في آسيا الصُّغْرى؛ وصارَتْ دَوْلَـة العثمانيين أعـظم دَوْلَـةٍ في «البلْقـان» بعـد أن تمكّن السلطان «مُراد» ـ الأوّل ـ الذي خَلَفَ أباهُ «أُورْخان» (٧٦١ ـ ٧٩١ هـ) (١٣٦٠ ـ ١٣٨٩ م) من كسْـر قُـوَّتَيْ، الصُّـرْب والبلْغار في موْقعَتَيْ، (ماريتْزا) و (قوصوة) في أواخر القرْن الرابع عشر الميلادي، فوقعت بلاد البلقان وجزء كبيـر من شرق أوروبا تحْت سيطرة العثمانيين.

ولقد لاقى نجاحُ التُّرْك في دَحْر أوْروبا صدىً عميقاً في جميع أنحاء العالم الإسلاميّ، وخاصَّةً في بلاد الترك ذاتها، مِمّـا شَجَّع الأتـراك على الإستمْرار في الهجـرة من أواسط آسيا، تَجْمعهُم أَهْداف ممثّلة في:

١ ـ دين واحد.

٢ ـ نظام واحد.

٣ ـ غاية واحدة.

وكـان من حُسْن حظ العثمـانيّين أن زاد عَـدَدُ الَأتـراك الهاربين من أواسط آسيا أمام جحافل التتار، فآمتلأت بهم آسيا الصُّغْرى وقطاعات الدولة العثمانية في أوروبا، فآزدادت بهم قُوَّة ومنعة.

ولا يَفُوتُنَا في هذا الصَّدَدِ أَنْ نَذْكُر وصيَّة السُّلطان «عثمان» لولدِهِ «أورْخان»، فإن لها مَدْلُولاتٍ وأَبْعاداً؛ قال «عثمان»:

[لِتَجْعل هذا العالم بالعَدْل والفِسطاس مَعْمُوراً، ولتُفْعِم قَلْبي بجهادِكَ في سبيل الله حُبُوراً.

إبْذُلْ وُسْعَكَ كُلّه في طريق الجهاد، وَسُسُ القوْم بالْعَدْل في البلاد، وآبسْط على العلماءِ جناحاً للرعاية، كيْفما يستقيم أمر الشريعة إلى الغاية.

وَحذارِ من زَهْوِكَ بمالِكَ وَجُنْدِك، ولا تبْعد أَصْل الشّرْع الشريفِ عنك.

بالشَّرْع وحده يَسْتَتِبّ الملْك، فكُلْ ما خالف الشرع آجْتَنِبْ؛ دينُ الله ما نَحْن طالِبُون، وطريق الهُدى ما نَحْنُ سالِكُون].

☆ ☆ ☆

وإذا كان «عثمان» قد أَسَّس الدوْلة، و «أُورْخان» قد أَرْسى دعائمها، و «مُرادٌ»، الأوّل قد أَعْلى من شَأْنِها، فإن «بايزيد» ـ الأول ـ، الملقبِ بـ «الصاعقة» ـ يَلْدرْم ـ لِحَمْلِهِ على أَعْدائِهِ في معارك القتال بِضَرَباتٍ خاطفةٍ سريعة كانت تحدث آثارها السيئة بينهم، وتُبَعْثِرُ جُنُودهم ـ . . . ، فإنَّ «بايزيد» هذا كاد أن يَقْضي القضاءَ العَام على الإمبراطورية «البِزنطية» لو آمْتَاز بِالتَّبَصُّرِ والحكمة وحُسْن السياسة. . .

فقد قضى نهائياً على مملكة «البلْغار»، وفَتَحِ بُلْدانها الواحد بعد الآخر، كما تمكَّن من القضاءِ على قُوَّةِ الصِّرْب تماماً وَإخْضاع أجزاء من «ألبانيا» ثُمَّ أعطى أُوْروبا دَرْساً قاسياً عندما أرادت أَنْ تتحدّى قُوَّةَ العثمانيين، حيثُ قضى على قُوَّة التحالف الأُوْروبِي الصليبي في موْقعة «تيكوبولس»، في أواخر القرْن الرابع عشر الميلادي.

☆ ☆ ☆

«بايزيد» و «تَيْمُورْلَنْك»

ورُبّما كان «بايزيد» مُستطيعاً فَتْح «القسطنطينية»؛ تلك المدينة الخالدة، لْولا تَردُّده، وضَعْف أُسطوله البحْري، وعدم آسْتكمال استعْدادِه، وظُهور «تَيْمُورْلَنْك» على مسْرح الأحْداث.

فقد أَرْسَلَ «تَيْمُورْلَنْك» رسالَتَهُ الشهيرةُ إلى «بايزيد» يُنْذِرُهُ فيها بتسليم ما في حوْزَتِهِ من أَمْلاك وهُوَ يحاصِرْ «القسطنطينية»، الأمر الذي دعاهُ إلى رَفْع الحصار عنها والتحرُّك نحو الشرق لمواجهة عدوّه.

وَبَدأ «تَيْمورلَنْك» هجومه في ربيع عام (١٤٠٢ م)؛ مُتقدِّم في قُوّاتٍ كثيرةٍ كثيفةٍ، تَبْلُغُ السبعمائة ألف مقاتل، في حين لم يتيسَّر لِـ «بايزيد» الخروج في أَكْثر من مائَةَ أَلف رَجُل، ورغم ذلك شَق رجالُ «تَيْمورلَنْك» طريقهم وسْط الأملاك العثمانية بحذرٍ بالغ، مُتجنّبين الإشتباك بقُوات «بايزيد»،

حتى بَلَغوا سهل جَبَل «أباد» الذي تستقي منه المدينة وتحصَّن الجناحُ الآخر في خنادِق ومتاريس قويَّة.

وأصَرَّ «بايزيد» على خَوْض المعركة، رغْم إلْحاح قُـوّادِه عليه في تَجنُب رمْي قُواته في معركةٍ فاصلة، لما كان عليه جَيْش العثمانيّين من قِلَّةِ الاسْتعْداد، أضف إلى ذلـك كثرة قوات «تَيْمورْلَنْك».

إتّجهَ «بايزيد» أوّلاً إلى الشمال من عدوّه، ثم ما لَبِثَ أن سَحَب فريقاً آخر من جُنْدِهِ، وجعل يقْذِف بهم لِتَصَيُد عدوّه، في حين انتشرت بقيَّة قواتِهِ على هيئة دائرةٍ بُغْيَـةَ الإحاطـة بالعدوّ وإكراهِهِ على خَوْض المعركة.

وهاجم الفرسان الصُّرْبِيُّون جُند «تيمُورْلَنْك» في حمـاسةٍ بالغةٍ، ولكن «بايزيد» طلب إلى جُندِه أن يَرْتَدُوا خشيـة أن يُطوقَهم العدوّ، فإذا بقواتِ «تَيْمُورْلَنْك» تسبقهم إلى احْتلال مواقعهم الأولى في الشمال، وقد قَطَعُوا موارِد الحياة عنهم.

وتابَعَ «تَيْمورْلَنْك» تقدُّمه ، فلم يَشَأْ «بايـزيد» أن يَـرْتَدَّ، وخَـرَجَ من صُفُوفِ جَيْشِـهِ الكثيرون عنـدمـا رَأوا أُمـراءَهـم وأعلامهم تُرفْرِفُ ضمْنَ أَعْلام قُواتِ «تَيمُورْلَنْك».

وآضطرب الموقف. . . .

وتَأكَّد «بايزيد» من الهزيمة، وضياع المُلْك، فَثبَت ومعه

حـوالي خمسـة آلافٍ من جُنُـود الإنكشـاريَّــة[1] في وجـه «تَيْمورلَنْك» وجُنْدِهِ، وقاتَلُوا جميعاً قتال الأبـطال، حتى لم يعَـدْ في طـوْق المقـاومـة أن تَـدْفـع الهـزيمـة أَكْثَـرَ مِمَـا فعلتَ . . . ، فلمّا جَنَّ الليل، حاوَل «بايزيد» الهروب . . ، ولكنه قُبِضَ عليه، وحمله «تَيْمُورلَنْك» معـه في قفصٍ من حديد إلى عاصمتِهِ في أواسط آسيا، وبقي هُناك أسيراً، إلى أن مات في العـام التالي حُزْناً وكمداً .

☆ ☆ ☆

---

(١) الإنكشارية: جنودٌ من غير المتطوّعة تخـرج مع الجيش بقصْـدِ الغنائم والكسب المادي .

الحُروبُ الأهليَّةُ

و «مُحَمَّدٌ» الأوّل

وَلِحُسْن حظِّ العثمانيين، فإنه بالرغم من الحرْب الأهليَّة التي قامت بَيْن أبْنَاءِ «بـايـزيـد» وآستمَّرتْ أَحَدَ عَشَر عـاماً، إستـطاع أَحَدُهم «السلطان محمـد الأوّل» أن يُـوَحِّـد قـوى العثمـانيين من جديـد، وأن يَتَّبِـعَ سيـاسـة التَفـاهُم واللين والمهادنة لتثبيت دعائم الدَوْلة.

ومن حُسْن حظهم أيْضاً أن زاد عَدَدُ الأتراك الهاربين أمام جحافِلِ التّتار، فآمتلأت بهم آسيا الصُّغرى، وأملاك الدولة العثمانية في أوروبا، فآزدادت قُوَّة الدولة العثمانية من الناحية الحربية العَدَدِيَّة، بهذه العناصر الجديدة.

☆ ☆ ☆

«مُرادُ الثاني»

وفي عَهْـد «مُراد الثـاني» - (٨٢٤ - ٨٥٥ هـ) (١٤٢١ - ١٤٥١ م)، - والـد السُّلْطان «محمـد» الفـاتـح - سيـطر العثمـانيُّون على آسيـا الصُّغرى والبلْقـان، واكْتَسَحُوا شبـه جزيرة اليونان، وهَزمُوا «المجريّين» و «الألبان» وبذلك ٱبْتَعَدَ نهائياً الخطرُ الأوروبي، وأَصْبَحَ الأتراك في مأمنٍ من ناحيةِ نهر «الدانُوب».

كما أُلْزِم الإمبراطور البيزنطي بدفْع الجزيّة، ولم يَبْق له من ممتلكاتِ الدّوْلة البيزنـطية إلاّ «القسـطنطينيـة» وضواحيهـا، فكان الإستيلاءُ على هذه المدينة العتيدة مُهمَّة أعظم سلاطين بني عُثْمان، وهُوَ السـلطان «محمد» - الثاني -، الملقب بـ «الفاتح» بفَتْحِهِ هذه المدينة؛ الذي تولى الحكم بعد أَبيه في السادس عشر من شَهْر المحرَّم سنة (٨٥٥ هـ) الموافق لـه الثامن عشر من شَهْر شُباط (فبْراير) سَنَة (١٤٥١ م)؛ وكان في الحادية والعشرين من عُمره.

☆ ☆ ☆

وما من شَكَّ في أنَّ الروح الإسلاميَّة، وجهاد السَّلف، وما تضمّنه من عوامل النّصْر والنجاح، وروح الإنْضباط التي كان يتحلّى بها التركي، هي التي شجعت السلطان «محمد» - الفاتح - على القيام بفُتُوحاتِهِ العسكرية، وساعَدَتْ على انتصارِهِ.

أُضيف إلى ذلك المزايا والعوامل الشخصيَّة التي كان يتحلّى بها السُلْطان «محمد» - الثاني -.

ولم تكُنْ إنجازاتُهُ لِتَنْحَصِرَ في إطار الموهبة العسكرية والطموح في الفتْح والتوسُّع، ونَشْر راية الإسْلام، بل كان - رحمه الله - حُجَّة في الإدارة والتنظيم والتطلُّع الحضاري.

وهو يُعَدُّ من أَعْظم سلاطين «آل عثمان»، ولقد وَصَلَ إلى دَرَجَةٍ من قُوّة النفوذ حيث كان يُعتَبَرُ محوراً للسياسَة العالمية، وصاحبَ الكلَمةِ الأولى في الشؤون الدوليّة، وشملتْ علاقاته السياسية والحربية أوروبا وآسيا وأفريقيا ويعتبرُ - بحقّ - موطد سيادَة العثمانيين في أوروبا، ومُبدد الأحلام الصليبية وتحالُفاتها.

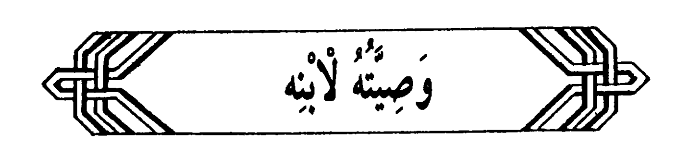
وهُوَ أوّل سلطانٍ عثمانيّ اشتهر عند الأوروبيين، وكثُر حديثُهُم عنه، بل وأوّل حاكم إسلاميّ أطلق عليه أهل أوروبا لقب: السيد العظيم: .(Grand seigneur)

وكان مُجرَّد سماع آسْمه يُثير الرُّعْب والْهَلَع في قُلُوب

أَعْدائِهِ، ولا أدلّ على ذلك من آحْتِفالِ أُوْروبا بموتِهِ!!!؟؟

لقد أقامت البابويَّـة في «رُوما» الحفـلات والمهرجـانات الصاخبة إبتهاجاً بذلك.

وظلَّت الـرهْبـة من هــذا السُّلْطان تخيِّم على أَعْـدائِــهِ في أُوْرُوبا حِقْبةً طـويلةً من الزمن، كمـا ظلت ذِكراه تُلْقي الرُّعْب والفزع في قُلُوب أهلها عشرات السنين بعد وفاتِهِ.



وَصِيَّتُهُ لاْبْنِه

قال السُّلْطان «محمد» الفاتح، في وصيّتِهِ لابْنهِ:

- ها أنَذا أمُوتُ، ولكني غَيْر آسف لأنني تارك خَلَفاً مِثْلك. كُنْ عادِلاً صالحاً رحيماً، وابْسُط على الرعيَّة حمايَتَك بِدُونِ تَمْييز، واعمل على نَشْر الدين الإسلامي، فإنَّ هذا واجبُ الملُوكِ على الأرْض.

قدِّم الإهْتمام بأمْر الدَين على كُلّ شيْء، ولا تفتر في المواظبة عليه، ولا تَسْتَخدم الأشخاص الذين لا يَهْتمُونَ بأَمْر الدين، ولا يجتنبُونَ الكبائر ويَنْغَمسُونَ في الفحْش، وجانب البدَع المفُسدة، وباعِد الَّذين يُحرِّضُونَكَ عَلَيْها.

وسِّع رقعة البلاد بالجهاد، وأحْرس أمْوال بَيْتَ المال من أنْ تَتَبَدَّدْ.

إيّاك أنْ تَمُدَّ يَدَكَ إلى مال أَحَدٍ من رَعِيَّتِكَ إلا بحَقٍّ الإسلام، واضْمَنْ لِلْمُعْوزين قُوتَهُم، وابْذل إكْرامَكَ لِلْمُسْتَحقين.

وبما أن العلماء هُم بمثَابةِ القُوَّة المبْثوثةُ في جسْم الدَّوْلة فَعَظِّمْ جانِبَهُم وشجّعْهم، وإذا سمِعْت بأحَدٍ منهُم في بلَدٍ آخر فآسْتَقْدِمه إليْك، وأكْرِمْهُ بالجاه.

حَذار... حذارِ...، لا يَغُرَّنَّك المال ولا الجنْد، وَإياك أَنْ تُبْعد أهْلِ الشريعة عن بابك، وَإيَـاك أن تميل إلى أي عَمَلٍ يُخالِفُ أَحْكام الشريعة، فإنَّ الدين غايتُنا، والهدايـة منهجُنا، وبذلك انتصَرْنا.

خُذْ مِني هذه الْعِبْرة:

حَضَرْت هذه البلاد كَنَمْلةٍ صغيرة، فَأَعْطاني الله تعالى هذه النِّعَمَ الجليلة، فآلْزَم مَسْلكي، وآحْذُ حذْوي، وآعْمِل على تَعْزيز هذا الدين وتوْقِير أَهْله، ولا تَصْـرف الأمْوال ـ أمْـوال الدوْلة ـ في تَرَفٍ أَوْ لَهْوٍ، أَو أَكثَرَ من قَدْر اللّزُوم، فإنَّ ذلك من أَعْظم أَسْباب الهلاك.

☆ ☆ ☆

وَنَحْنُ بِدَوْرنا نكْتفي بإيراد الـوصيَّة دُونَ التعْليق عَلَيْهـا، لأنها تحمل في مضمونها أُصُـولاً وأُسساً وآفـاقاً تحتـاج في إفرادِها وبحثها إلى كتاب قائمٍ بذاته.

☆ ☆ ☆

بيْن «أبي أيُّوبٍ»

ـ رضي الله عنه ـ

و «الفاتِح»

(كان السُّلْطان «محمد الثاني» ـ الفاتح ـ يَعْرِف من كُتُب التاريخ وروایاتها الموْقُوتـة أن قَبْر «أبي أَيُّـوب» ـ رضي الله عنه ـ بموْضعٍ قريبٍ من أَسْوار «القسطنطينية».

فَرغِبَ إلى شَيْخٍ مِنْ حَمَلةِ الْحجَّة، وأَهْل الوَرَع والتَّقْوى أَنْ يَبْحَث عن مَوْضِعِ الْقَبْر ويعيِّنَهُ له.

فَقَرأ الشَيْخُ الأوراد، والسُّلْطانُ أمامَهُ على رُكْبَتَيْهِ، وطائِفَةٌ من العُمّـال والْفَعَلَة يُنقبُـونَ في الأرْض، ويحفــرون هُنـا وهُناك.

وظهـر رقيمٌ رُخامِي عَلَيْـهِ خَطٌّ يَدُلُّ على أَنَّ مـرْقد «أبي أَيُّوبٍ» تحتهُ)[1].

وتضيفُ الرواية:

(فتحيَّر السُّلطان، وغَلَبَ عليه الحال، فلم يتماسك، وكاد

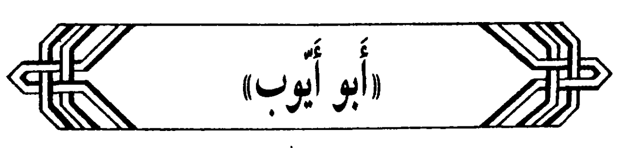
(١) (طاش كبرى زاده) ـ الشقائق النُّعمانية ـ (ص: ٣٤٦، ٤٧، ٤٨). على هامش «ابن خَلكان» (ج ـ ١) القاهرة: (١٢٩٩ هـ).

يَسْقُط، لوْلا أن بادَر إليْه مَن أَمْسكَهُ، وسُرعان ما أمَـرَ ببناء قُبَّةٍ على الْقَبْرِ وسَجَدَ» أ ـ هـ.

☆ ☆ ☆

ومنذ أيام السُّلطان «محمد» ـ الفاتح ـ دَرَج السلاطين من بعدهِ على تقْليدٍ اَتْبَعُـوه، حَيْثُ تتمُّ لهم البيْعة في مسجْـد الصَّلحاني الجليل «أبي أَيُّوبٍ الأنصاريّ» ـ رضي الله عنه ـ في آحتفالٍ مهيب، ويتقلَّدُون سَيْفاً رمْزاً إلى السُّلْطةِ والجهاد في سبيل الله.

☆ ☆ ☆



- رضي الله عنه -

وَالْتصَوُّف!!!

قُلْنا فيما سبَق عند الحديث عن الهالة الصُّوفيَّة التي أحاط بها التُرْك (العثمانيُّون) شخصية «أبي أَيُّوب» - رضي الله عنه - بأَنَّ لنا مع هذا حديثاً ووقفة.

وقُلْنا أَيْضاً بأن «أَبا أَيُّوب» - رضي الله عنه - لم يكن من التصوُّف في شيْء - في مَفْهُومِهِ الموضوعي التقليدي -، لا من كثيرٍ ولا قليل.

إذاً. . . من أَيْن جاءَتْ (سلْطَنَتُهُ) عندهم؟؟

☆ ☆ ☆

والجواب يحتاجُ إلى مراجعةٍ شاملة. . .

فَمُنْذ القَرْن الثالث الهجريّ خَرَج الأمْر من يد الْعَرَب ليدخُل في أَيْدي التُّرْك التي قَبضَتْ على الأَزمَّةِ لتكون المصائر طوْعاً لها.

وَمِمَا يُروى أن أَحَد خواصّ السُّلطان «محمود الغَزْنوي» -

رحمه الله ـ كان إلى جوار فراشه وقد حَضَرَهُ المَوْت، فقال لهُ:

ـ من ذا الذي يَحْمي الإسلام بَعْدَك؟

فأجَابهُ السُّلْطان:

ومن أنا حتى أَسْتطيع حماية الإسلام؟ إنما يَحْمي الإسلام اللهُ القادِرُ المتعال.

☆ ☆ ☆

لقد أعَدَّ التُرْك ـ ما آسْتَطاعُوا ـ قُوَّتهم لنُصْرَةِ الدين، وتَدفَّقَتْ جحافلهم تَدفُّق السُّيُول من وسط آسيا إلى الثُغور الإسلامية لِدَفْع أعدائه عنها.

ويقُصُّ علينا التاريخ أَنَّ خطيب المسجد في أوّل خطبة خطبها للسلطان «سليم» ـ الأوّل ـ، قال عَنْه أنه مالك «مكّة» و«المدينة»، فسار ذلك السُلطان، الذي أَسْكتَهُ وَأَمَرَهُ أَنْ يعدَّه خادِماً لهاتَيْن المدينتيْن لا مالكاً لهُما، ومنذئذٍ أطِلق هذا اللقَبُ (خادِم الحرميْن الشريفيْن) على سلاطين «بني عُثْمان»[(١)].

وفي عام (٩٢٧ هـ)، حين أخذ السُّلْطان «سَلَيْمان القانُوني» أُهْبتَهُ لِفَتْح حِصْن «بلغْراد» بحصين، وحاصَرهُ

(١) جانتاي (ت) توروزي. فَرْسَنْك إسلامي درْ نواحي تُرْك نشين (ص: ٣١٠، ١١) تبريز.

بجُنْدِه، حتى كانت الهزيمة، واسْتَسْلم مَنْ كـان فيه، قـال الكاتب التركيّ (لمْعي)[1]:

ـ إن جنود الإسلام حقّقُـوا نَصْرَةً حـطَّمت قلوباً لأعْـداء الدين، وأَبْهَجَتْ قلوباً للمؤمنين

☆ ☆ ☆

ولّمـا اسْتَـوْثَقَ الأمـر ـ كُلّه ـ لـلأتـراك العثمـانيين في (الأناضُول)، كانت تلك البلاد ممتلئة الأرْجاء بـ «الـزوايا) (والتكايا)؛ لَقَد مال القَـوْم إلى التزهُّـد والتَعَبُّد، ملتمسين بـذلك مخـرجاً ومهْـرباً من دُنيـاهم التي وقعت في قلوبهم كـراهيتُها، بَعْـدَ أن كابَـدُوا ما كَـابَدُوا من غـزواتِ المغُول (التّتار)، فَدَهَمَتْهُم الكوارث ووهَنَتْهُم الحوادث، ورأوا مـن الخير أَنْ يقطعُوا ما بَيْنهم وبَيْنها من أَسْبَاب، ويُعْرِضُوا عن مفاتنها، فرقّت قُلُوبهم للتّقْوى، وَجَنَحُوا جُنُوحاً شديداً إلى التصوُّف.

☆ ☆ ☆

وصـادَف أَنَّ رَأْس مُتَصوِّفَـةِ الفُـرْس، وأَعْـظم شعـرائهم «جَلالُ الدين الرُّومي» نَزَح عن بلاده إلى (الأناضُول) حَيْثُ استقرَّ بِهِ المقام في مدينة «قُونْية»، فَتَحلَّق حوْله المريـدُون

---

(١) (لمْعي) ترجمة نفحاتُ الأُنْس. حامي: (ص: ٩).

والأتباع، يَسْمَعُونَ مِنْهُ ويَأْخُذُونَ عنه؛ فذاع مذهبهُ الصُّوفي في طُولِ البلاد وعَرْضها.

وخَلَفَهُ وَلَدُهُ في نَشْر طريقتِهِ المعروفة بالطريقة «المَوْكوليَّة»، التي اسْتَوْجَبَتْ مِنْهُ، أَنْ تنظم كتاباً بعُنْوان: (ربابْ نامَهْ)، أي: كتاب الرَّباب، وهُوَ يُعَدُّ باكُورة الشِّعْر التركي العثمانيّ، وفيه الْتَزَم مَنْهجاً تعليماً لِيَشْرَحَ بِهِ تعاليم طريقتِهِ الصُّوفية.

وَإنْ دَلَّ ذلك على شيْء، فهو أكيد الدلالة على أن النَّزْعة الدينيَة تأصَّلَتْ في الروح التركيَّة منذ أَوَّل عَهْد التاريخ بها، ثُمَّ جَنَحتْ إلى التصوُّف....،

وربّما كان التصوُّف بسبحاتِه، وجذباتِهِ، وَإغْرابِهِ، وإغْماضِهِ، وتأويله وتمثيلِهِ وقفاً على الخاصَّةِ من القَوْم، بل تعدّاهم ليغمُر سوادَ النّاس وعاميتهم، وكانَتْ بواكير الشِّعر التركي أَصْدق ما يكون في تعبيرها عمّا ماجَتْ بِهِ حياةُ التُّرْك الرُّوحيَّة.

☆ ☆ ☆

وَنَلْمَحُ آصِرَةً وَشجَتْ بَيْن التُّرْك والفُرْس تَدْفَعُنا إلى تَجاوُز الإجمال إلى شيّءِ من التَّفْصيل.

فقد رأينا أَنَّ «جلال الدين الرومي» أعظم شعراء الصوفيَّة عند الفرس كان صاحبَ الْفَضل في نَشْر طريقتِهِ الصوفيَّة بَيْن

التُّرك، وكيف أن وَلَدهُ المعروف بـ: «سُلْطان وَلَد» أراد أن يعلِّم الناس ما لم يَعْلَمُوا من طريقةِ أبيه، فنَظَم كتاباً، وبِهِ آنْبَثق الأَدَب التركيّ إلى الوجود.

ونحن واجدُونَ أَيْضاً أن العثمانيّين كانُوا وَرَثَة السلاجقةِ في مُلْكهم وتُراثهم الثقافي، وكانت الفارسيَّةُ لُغَتَهم الرسميَّة، وبَلَغتْ آدابها في الإزدهارِ شَأواً بعيداً، مِمّا أفضى إلى دُخُول ما لا يقَع تَحْت حَصْرٍ من ألفاظ الفارسيَّة وتراكيبها على التُّركيّة.

ولمّا كانت الفارسيَّة من قَبْل زاخرَة بكثْرةٍ كاثرة من الألفاظ العربية، وجدت العربية ـ كذلك ـ سبيلها إلى التركّية مع الفارسية، فأصبحت لُغةُ الترك مزيجاً من لُغاتٍ ثلاث، هي لُغاتُ التراث الإسلامي في أُصُولِهِ وفُروعِهِ.

وقال من وصف تلْك الظاهرة:

ـ إن العربيَّة والفارسيَّة والتركية، تَبْدُو كأنها لهجات ثلاث لِلُغةٍ واحدة هي لُغة الأدب الإسلاميّ[١].

ويجري مع هذا النسق أننا إذا عمدنا إلى كتاب تركي من كتب النثر الفني وقرأنا منه سطوراً على تركي لا يحذق العربية ولا الفارسيَّة؛ أو فارسي يجيد لُغتَهُ وحدها، أو عربيّ متضلّع

---

(١) Memzel: Die Türkishe Literatur Die Orientalischen Literaturen: 289 - 290 (Berlin - 1925).

في العربية . . ، لوجدْنا أن ثلاثتهم لم يَفْقَهُوا مِمّا تَلَوْناهُ عليهم شيْئاً؛ مما يدّل على أن لُغَةَ العُثمانيين تتشكل من ثلاث لُغات، وذلك مِمّا أَوْجب على علماء الترك أن يعرفوا العربيَّة والفارسيَّة إلى جانب التركيَّة، فَاكْتملت لديهم عناصر الثقافة الإسلامية.

☆ ☆ ☆

وهنا. . .

نعرف الصلة الوثقى بيْن العرب والترك والفرس، بعدما عَرَفناه وتتَبَّعْنا صِحَّته وأَهَمّيَّته من صلة الدين؛ ولو ذهبنا نلتمس ظواهر تتجلّى فيها تلْك الصلاة بِتَشعُّبِ وَشُمُول لوجدْناها في شخصيَّةٍ عظيمةٍ لأحد رجالات الإسلام، هُو: «أبو أَيُّوب الأنصاريّ» ـ رضي الله عنه ـ.

☆ ☆ ☆

وهو بَيْن العرب والتُّرك ـ على الأخصّ ـ صلة موْصولة بِوَحْدَةِ الإيمان، وجامع مشترك تتعلَّق بِهِ وشائج الدين الحنيف، وعنده تلْتقي الأُمَّتان في وارفٍ من ظلالٍ لراية الإسلام التي خَفَقَتْ خفوق القلُوب المؤمنة في آفاقٍ وآفاق.

فـ «أَبو أَيُّوب» ـ رضي الله عنه ـ من صحابةِ رسُول الله ﷺ إلا أَنَّهُ مُتَميِّز عن كثيرٍ منهم بأنَّه أحد الذين بايَعُوهُ ليْلة الْعَقَبَةِ، وشهِد المشاهد كُلّها والفُتُوح، وداوم الْغزْو.

وفي داره كـان نزول رسـول الله ﷺ حين قَدِم المـدينة مهاجراً ، فَأَقام عِندهُ شَهْراً حتى آبتنى مسجده ومساكنه من حوْلِهِ.

وقد استخلَفَهُ «عليٌّ» ـ كرم الله وجهه ـ على «المدينة» لّما قصد إلى العراق، ثُمَّ خَرَج معه لقتـالِ الخوارج، مُنـاصِراً ومُشايعاً.

وقضى العُمـر كُلّه في سبيـل الله مُجـاهـداً، فجـاهَـدَ المشـركين حيـاة النبيّ ﷺ، ثُمَّ الـروم في مِصْـر وقُبْـرص «والقسطنطينيَّة» إلى أَنْ قضى نحْبَهُ تحْت أَسْوارها على عَهْد «معاوية بن أبي سُفيان» عام خمسين للهجرة (٥٠ هـ).

كما أَنَّه ـ إلى هذا كُلّه ـ مِمَّن تَحَّملُوا آمانَةَ السُّنَّة فَرَوُوا عن النبيّ ﷺ من الأحاديث ما شاء الله لهُ أَنْ يحفظ ويروي.

وإذا ما رجـعْنا إلى سيرته في كتـب التـاريخ والتـراجم وتوسَّمْناها بِنَظْرَةٍ من أراد سَبْر الْغوْر والخروج بحُكْم، لوجدْنا جمهرة تلْك الكتب تدير الكلام عليه ولكن في نطاق محدود، وكأنّما تناقلتْ سيرتـه عن مصْدَرٍ واحـد، وقد يُغْنِينـا تَصَفُّح كتابٍ عن تصفُّح آخر، ليْس فيه من مزيدٍ ولا جديد.

وأيْضاً...

لا نَعْرف لهُ في كُتُب الفُرْس منزلةً خاصَّة، فما نكاد نجد له عند الشيعة رِفْعةً، وهو الذي وصل أسبابه بأسْباب «عليّ» ـ

رضي الله عنه ـ فكانَ من أشياعِهِ الّذين وَطّنوا أنفسهم معه على جهاد الخوارج، فَأَمَّره «عليٌّ» على عسكره، وأبْلى «أبو أيُّوبٍ» بلاءً حَسناً في المنازلة والمجادلة.

لكن لهُ عِند التّرْك شأناً آخر!!

كان له عند عامَّتِهم وخاصَّتِهم رُتْبَةُ (وَلِيّ) الله، الذي تهوى إليه القلوب المؤمنة لِيْغمُرها نُورٌ من بركاتِه، وتذكره العقول الواعية لِيَعْرِف عنه أُمّهات الفضائل والرفيع الجليل من قِيَم الحقّ الّتي تَجمَّعتْ لديه.

وليس من ريب في أن مردوده ذلك إلى أنّـه ـ رضي الله عنه ـ كان مُضيفَ رسولِ الله ﷺ، وتلْك الضيافَةُ عِلَّةُ العِلَلِ في ذكره الذي ردَّدتْـه ألسنتهم، وتضمّنَتْه صفحـاتُهم، لَأنّه أكرمه وأعانَهُ في وَقْتِ العُسْـرَةِ..، والتُّرْك هُم من هُم في صفاء تسنُّنهم وفرط محبَّتهم لِنَبِيِّهم ﷺ.

و «أبـو أيُّـوب» ـ فـوْق ذلـك ـ مـرْمـوق المكـانـةَ بَيْنَ المجاهدين..، وغايَةُ الجهاد ضمانة أن لا يفتن المسلمون عـن دينهم، وأن يعـزّ الإسلام وَيَمْتنـع عن الفتنةِ والأذى، ويحفظ من عُدوان أَعْدائه الظالمين..، والمجاهِدُ يُحـامي عن المسلمين أَنْ تذهَبَ رِيحُهُم، فعَرَف لهُ التُّرك فضله؛ ولا غَرْوَ أَنَّهم نَظَروا إلى الجهاد نظراتهم إلى دعـامة ركنيـةٍ من دعائم الإسلام.

وَهذا التكريم والتعظيم والتقدير ظاهر في أن شعراء التُّرك الذين تبرَّكُوا بمدْحِهِ ـ رضي الله عنه ـ، وآحْتَسبُوا أجْرَهُم عند الله تعالى، إنَّما جَعَلُوا (الضيافة)، و (الجهاد) أعظم مناقَبِهِ، وأَظْهر مآثِرِه.

☆ ☆ ☆

روى الرحّالة التركيّ «أولْيا جلبي»:

أَنَّ السلطان «أَحْمد» المـرَبّـع على العـرْش سنـة (١٦٠٣) م، قيل له إنّ أَثَر قَدَم النبيّ ﷺ على الْحَجَر في ضريح «قايْتباي» بمصْر، وحقيق بِمثْل هذا الأثر في قُدسيته ونفاسته أَنْ يكون في مسجد السُّلْطان.

فسُرعان ما كتب السلطان «أحمد» إلى عامله على مصر «مُراد» يأمُرُهُ بالتَّعْجيل في إرْسال ذلك الحجر إليْه.

وبعد سَبْعة شهـور، أُخْبِر السلطان ذات ليْلةٍ بِـوُصولِـهِ، فطلب التوجُّـه بِهِ تَـوّاً إلى ضريـح «أبي أَيُّوب» ـ رضي الله عنه ـ.

وَعَـرف النبأ أَهْـل «استانبـول» فلمَّـا أصْبَحُـوا تـزاحمتْ وتسابقَتْ جُمُوعُهُم، كباراً وصغاراً، رجالاً ونساءً، إلى حيث يَسْتَقْبِلُونَ الحجر الشريف.

وفي موكب عظيم انطلق السلطانُ إلى الضريـح، وهناك مَسَحَ وَجْهَهُ بذلك الحجر تَبَرُّكاً، ووضعه على رأسِهِ تَعظيماً

وتَقْديساً، ثم انطلَقَ لسانُهُ بهذيْن البَيْتَيْن بديهةً[1]:

(ما ضَرَّ لو جَعْلتَ من التاج البديل على الدوام أثر قَدَمِ الرسُول، تلْك القدم من روضة النُّبُوَّةِ زهرتُها..، هلُمَّ عَجِّل يا «أحْمد» إمْسَحْ وَجْهَكَ بقدمها).

☆ ☆ ☆

وَمِمّا قيل في هذا الصَّدَد أن أحد الموسيقيِّين لحن هذين البيْتَيْن، وكان يترنم بهما في ليالي رَمَضان.

وفي حَشْـد زاخر من الـدّاعين والمبتهلين حُمِلَ الحجـر ليوضَعَ في موْضِعِه من مَسْجد السُّلْطان «أحمد» الأوّل.

☆ ☆ ☆

كما ذُكر أَيْضاً أن السُّلْطان «أحمد» نَقَشَ مثالاً للقدم النبويَّة على حِلْيَةِ عِمامَتِهِ، وجـعل لهذا الحجر حِلْيةً فِضِّيَّة نُقشتْ عليها هذه الأَبيات:

تَشَـوَّق حضـرة السلطان «أحمـد»
زيـارة مـوطن القـدم المكـرَّم
فـحـرَّكـه يجـاذبـه آشـتيـاقٌ
عـلى إقْـدام أَقْـدام تـقـدَّم

---

(١) قوله تاجم كبي يا شمنده كو توسم دايم
قدمي رسمي دور حضرت شاه رسُولك
كل كلزات نُبُوَّتْ أو قدم صاحبيدر
أحمد أورومه يوزك سور قدمته أوكْلك

وسيَّره إلى القسطنطينية

فقال له: تَقَدَّم خير مندم

وأدخل داره باليُمن حُبّاً

وتعظيماً لصاحِبِه المُعظّم

حبيبُ الله سيّدنا «محمد»

عَلَيْه ربُّنا صَلَّى وَسَلَّم

☆ ☆ ☆

قالها من قالها رغبة في إظْهار محامد السلطان، والإشارة إلى أنّ الخير كل الخير ما صَنَعَ، بعد آعْتَزازِهِ بأثر الرسول الكريم، في إجْلالٍ وَإكْبار.

وَبَعْدُ ـ عزيزي القارىء ـ فعُذْراً إن نَحْنُ أطلنا عليْك في هذا التَمْهيد مِمّا تَقْتضيه ضرورة البحث والترجمة لشخصية صحابِيّ جليلٍ كريم ما أخذت حقّها من الدراسة والإسْهاب.

☆ ☆ ☆

«يَثْرِب»

[يَثْرِبْ: بِفَتْح أَوّله، وسكون ثانيه، وكسْـر الراي، وبـاءٌ موحّدة.

قال أبو القاسم الزجاجي: يَثْرِبُ، مدينةُ رسُول الله ﷺ، سُمِّيَتْ بـذلك لأنَّ أول من سَكَنَهـا عن التفـرُّق: يَثْـرِبْ بن قانية بن مِهْلائيل بن إرَم بن عبيد بن عوض بن إرَم بن سام بن نوح ـ عليْه السَّلام ـ.

فلمّا نزلها رسُول الله ﷺ سمّاها: طيبة وطابـة، كراهيـة للتثْريب، وسُمِّيَتْ مدينة الرسُول لنزوله بها، قال: ولو تكلَّف متكلِّف أن يقول في يَثْرِب إنَّهُ يَغْفل من قَـوْلهم: لا تثريب عليكم، أي لا تعْييـر ولا عتيب كما قـال الله تعـالى: ﴿لا تثريب عليكم اليْومَ﴾[1]. قال المفسّرون وأهل اللغة: معناهُ لا تعْيير عليكم بما صنعتُم. ويُقال: أصْل التثريب: الإفساد، ويقـال: ثَرب علينـا فلان؛ وفي الحـديث: (إذا زَنَتْ أَمَـةُ

(١) سورة (يوسف): الآية (٩٢).

أَحَدِكمْ فلْيَجْلِدُها ولا يُثْرب)، أي: لا يُعَيِّر بالزنا، ثم اختلَفُوا فقيل: إن يَثْرِب للناحية التي منها مدينةُ الرسول ﷺ؛ وقال آخرون: بل يثرب ناحية من مدينة النبيِّ ﷺ؛ ولمّا حُمِلَتْ «نائلَةُ بنْتُ الفرافِصَة» إلى «عثمان بن عفّان» ـ رضي الله عنه ـ من الكوفة، قالت تخاطب أخاها:

أحَقـاً تـراه اليْـوم يـا ضَـبُّ أنَّنـي
مـصـاحبـة نـحـو المـديـنـة أرْكُبـا؟
لقـد كـان في فتيـان «جضف بـزضحضم
لـك الويـل مـا يجـرى الخبـاء المحَجبـا
قـضى الله حـقـاً أن تمُـوتـي غـريبـة
بِـيَـثْـرب لا تَـلقَـيْـن أمّـاً ولا أبـا

قال ابن عباس ـ رضي الله عنه ـ:

ـ من قال للمدينة: يثْرِب، فَلْيَسْتَغْفِر الله ثلاثاً، إنما هي طيبة.

وقال النبيُّ ﷺ لمّا هاجَرَ:

[اللّهُم إنَّك أَفرِحْتَني من أَحبِّ أَرْضِـكَ إليَّ فَأَسْكِني أَحَبَّ أَرْضَيكَ إليْك فأَسْكَنَهُ المدينة].

هـذا ما جـاء تحْتَ مادَّة: يثـرب، في «مُعْجم البُلْدان» لِـ «ياقُوت الحمَوِي»، وَمِمّا قاله أَيُضاً بأَنَّه كان لها قبل الهِجْرة

---

(١) (ص: ٤٣٠) (ح: ٥).

النبويَّة الشريفة تسعة وثلاثون إسْماً.

☆ ☆ ☆

فيها كان مْولِدُ «أبي أَيُّوب» ـ رضي الله عنه ـ: [خالد بن زيْد بن كليْب بن ثعْلبة بن عَبْد بن عَوف بن غنم بن مالك بن النجّار[1]»] ـ الخرجيّ الأنصاري ـ.

ولم نجد فيما بَيْن أَيْدينا من المراجع من يـذكر تـاريخاً محدَّداً لسنة ولادتِهِ، ونرجّح أنّ مولده كان قَبْل الهجرة بعقْديْن من السنين ـ على الأقل ـ لأَنَّه ـ رضي الله عنه ـ شهدَ بيعـة العقبة الثانية وبايَعَ، وأَنَّه آسْتضاف رسُول الله ﷺ في بَيْتِـهِ وكـان مُتَزوِّجـاً، وهذه الـوقـائـع بتخـطيـه مَـرْحلة الشبـاب والتتوذ إلى الرجولة وتحمُّل المسؤولية.

☆ ☆ ☆

وإلى جانب قبيلة «الخزرج» التي يَنْتمي إليها «أبُو أَيّوب» كانت قبيلة « الأوْس»، وهِي أَقَلُّ عَدَداً، ومنهما كان يتكوُّن مُجْتَمَعُ «يَثْرِبِ».

ولا ننسى قبـائل اليهـود الثـلاث: «بني قَيْنُقـاع» و«بني النَّضير» و«بني قُرْيظة»؛ وهؤلاء كانت لهُم السَّيْطرة والنفوذ والسُّلطان، لَأَنَّهم كانوا أَصحاب رأس المال، في التجارة، والزراعة والصَّناعة، ويَنتمُونَ إلى رسالةٍ سمَاويَّة، وفي نَفْس

---

(١) بنو النجّار: هم أخوال رسُول الله ﷺ من ناحية أَبيه عبد الله.

الوقت كانُوا أَصْحاب دهاءٍ ومكْر، ما زالُوا يبذرون بَذُور الفُرقَةِ بَيْنَ الأوسِ» و «الخزرج».

☆ ☆ ☆

فَتَح «أَبُو أيُّوب» عينيْه على مجتمع متنافر. . ، وَثني جاهلي. . .، ونَشَأَ نَشْأَةً عاديَّةً.

وحين أَطَلَّ «مُصْعَبُ بن عُمَيْر» ـ رضي الله عنه ـ على «يَثْرب» مَبْعُوثاً من رسُول الله ﷺ داعياً إلى الله تعالى، تَأَثَّر «أبو أَيُّوب» بأحاديثه، ولامَسَتْ دَعْوَتُهُ شِغَافَ قَلْبِهِ، وأثارت كوامن وجْدانه؛ فلازَمَهُ يستمع إليهِ، ويحفظ عنه، ويثقفه.

فَلَمَّا حال الحوّل، وكان المْوسم، خَرَج «أَبُو أَيُّوب» ـ خالد بن زَيْد ـ مع طائفة من رجالاتِ يثرِب إلى «مكة»، وكانُوا يَوْمئذٍ ثلاثة وَسَبْعين رَجُلًا وآمْرأتَيْن.

☆ ☆ ☆

وَيُحدِّثنا «كَعْب بن مالك» ـ رضي الله عنه ـ عن لَيْلةِ بيعة العقبة الثانية التي شهِدها «أبو أَيُّوب» فيقول:

ـ فَنِمْنا تِلْك الليلة مع قَوْمنا في رحالنا، حتى إذا مضى ثُلُثُ اللَّيل، خَرَجْنا من رحالنا لميعادِ رسول الله ﷺ نَتَسَلَّلُ تَسَلُّلَ الْقطا[1] مُسْتَخْفين؛ حتى آجْتَمَعْنا في الشِّعب عِند

---

(١) نَوْع من الطُّيور تُشْبهُ اليمام.

العقبة، ونَحْنُ ثلاثة وَسبْعُون رجلاً ومعنا آمْرأتان من نسائنا: «نُسَيْبَةُ بِنْتُ كَعْبِ المازنيَّة» ـ أُمُ عامرة ـ، إحدى نسـاء بني مازن بن النّجّار؛ و«أَسْماء بنت عمرو بن عَـدِيّ بن نابي»، إحدى نساء «بني سَلَمة»، وهي: أُمُّ مَنيعٍ.

فآجتمعْنا في الشِّعب ننتظِرُ رسُول الله ﷺ حتى جاءَنا ومعه «العبّاسُ بن عبد المطلب» وهو يومئذٍ على دين قَوْمِهِ، إلاّ أَنَّه أَحَبَّ أَنْ يَحْضر أَمْر ابن أخيه ويَتوثَّق له.

فلّما جَلَس كان أَوّل مُتَكَلِّم «العبـاس بن عبد المـطلب» فقال:

ـ يا معشر الخزرج (وكانت العرب يسمُّون هذا الحيَّ من الأنصار: الخزرج؛ خَزْرجها وأوسها)، إن محمداً منا حَيْث قد عَلِمْتُم، وقد مَنَعْناهُ من قَوْمنا مِمَّن هُوَ على مِثْل رَأْينا فيه، فهو في عِزٍّ من قومه ومَنَعةٍ في بلده، وأنه قد أَبى إلا انْحياز إلَيْكم واللُّحـوق بكم، فإن كُنتم تـرَوْنَ إنكم وافُونَ لـه بما دَعَوْتموهُ إليه ومـانعـوه مِمَّن خالَفَـهُ، فأَنْتُم ومـا تَحمَّلْتُم من ذلك، وإن كُنْتُم ترَوْنَ إنكم مُسْلِمُوهُ وخاذلَوه بعد الخـروج إليكم، فَمِنَ الآن فَدَعُوه، فإنَّه في عِزٍّ ومَنَعةٍ في قومِهِ وبلده.

فَقُلْنا: قد سَمِعْنا ما قُلْتَ، فتَكَلَّم يا رسُولَ الله فَخُذْ لِنفسِكَ وَربِّك ما أَحْبَبْتَ. فتكَلَّم رسُول الله ﷺ، فتلا القرآن، ودعا إلى الله، ورَغبَ في الإسـلام، ثم قال: أبـايِعُكم على أن

تمنعُوني مِمَا تَمْنَعُون منه نساءَكم وَأبناءَكم.

فأَخذَ «البراءُ بن معرورٍ» بيده ثم قال: نعم والذي بَعَثَك بالحَقّ نَمْنَعُكُ مِمّا نمنع مِنْهُ أُزُرنا...

فبايعنا يا رسُول الله، فَنَحْن والله أَبْناءُ الحروب وأَهْلُ الحلقة[1] ورثناها كابراً عن كابر.

فاَعْتَرض القَوْل - و«البراء» يُكلِّم رسول الله ﷺ - «أبو الهيْثم بن التَّيْهان» فقال: - يا رسُول الله إنَّ بَيْننا وبَيْن الرجال حبالاً وَإنّا قاطعُوها (يَعْني اليهود) فَهَلْ عَسَيْتَ إن نَحْن فقلْنا ذلك ثم أَظهَرك الله إن تَرْجعَ إلى قَوْمك وتَدعنا؟؟

فَتَبسَّم رسول الله ثم قال:

- بل الدَّم الدَّم، والْهَدْم الْهَدْم[2]، أنا مِنكم وأَنْتُم مِنّي، أُحارِبُ مَنْ حارَبْتُم، وأُسالِمُ من سالَمتُم.

ثم قال: «أَخرِجُوا إليَّ منكم إثني عشر نَقيباً ليكُونوا على قومهم بما فيهم. فَأَخْرَجُوا بينهم إثني عشر نقيباً تِسْعة من الخزرج وثلاثة من الأوس][3].

☆ ☆ ☆

---

(١) الحلقة: السلاح.

(٢) كانت العرب تقول ذلك عند الحْلفِ والجوار، أي: دمي دَمُك، وهَدْمي هَدْمك، بمعنى: ذمَّتي ذِمتُكُم وحُرْمتي حُرْمَتُكم.

(٣) السيرة لابن هشام (ج١) (ص ٢٨٩).

يقول «ابن هشام» وهو يذكر أسْماءَ شهود العقبة والمبايعين ليلتها:

[وشهدها من الخزرج بن حارثة بن ثعلبة بن عمرو بن عامر، ثم من بني النّجّار - وهُو - تَيْم الله بن ثعلبة آبن عمرو بن الخزرج: «أَبُو أَيُّوب» وهُوَ: خالد بن زيد بن كليب بن ثعلبة بن عبد بن عوْف آبْن غنم بن مالك بن النجّار.

شَهِدَ بْدراً وأُحُداً والخندق والمشاهد كلها، مات بِأَرْض الروم غازياً في زَمَنِ «معاوية بن أبي سُفيان».].

☆ ☆ ☆

لماذا كان إسلام الأَنْصار؟؟

جاءَ في السيرة النبويَّة لـ «ابن هشام» وغيره:

[وكان مِمَا صَنَعَ الله بهم في الإسلام، أَنَّ يهوداً كانُوا معهم في بلادهم، وكانُوا أَهْلَ كتاب وَعِلْم، وكانُوا هُم أَهْل شِرْك وأَصْحاب أَوْثان، وكانوا قد عزّوهم في بلادهم، فكانوا إذا كان بَيْنهُم شيْء قالوا لهم: إن نبيّاً مَبْعُوث الآن، قـد أَظَلَّ زمانُهُ، نَتْبعُهُ فَنَقْتُلكُم معه قَتْل «عاد» و «إِرَمٍ».

فلّما كلَّم رسُول الله ﷺ أولئك النُّفَر وَدَعاهم إلى الله، قال بَعْضُهُم لِبَعْضٍ: ـ يا قَوّم..، تَعْلَمُوا والله أَنَّهُ للنَّبِيُّ الذي توَعَدَكُم بِهِ يهود، فلا تَسْبقنّكم إليه. فأجابُوهُ فيما دعاهُم إلْيه، بأَنْ صَدَّقُوهُ وقبلوا مِنْهُ ما عُرَض عَلَيهِم من الإسلام وقالُوا: ـ إنَا قد تركنا قَوْمنا ولا قوْم بَيْنهِم من العَداوة والشّر ما بَيْنهم، فعسى أَن يجمعهم الله بكَ، فَسنقْدِم عَلَيْهم فَنـدْعُوهم إلى أمْرك ونَعْرض عَليْهم الذي أَجَبْناك إليه من هذا الدين، فإن يجمعهم الله عليه، فلا رَجُلٌ أَعَزَّ مِنْكَ] (ج ١) (ص ٢٧١).

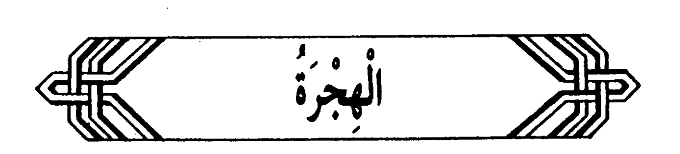
وهكـذا. . . ، تـوفَـرتِ الأسبـابُ لهجـرة النبيِّ ﷺ إلى «يَثْرب»، التي عُرِفَتْ مُنْذُ ذلك الحين بـ «المدينة» أو «مدينة النبيِّ».

«المدينة» التي لاحظنا أَنَّهُ كان يَسْكنها كثيرٌ من اليهـود: «بنو قِينُقاع» و «بنو قريظة» و «بنو النضير».

بـالإضـافــةِ إلى أَهْلِهـا الأَصليِّين من قَبيلَتَيْ: «الأَوْس» و «الخَزرج»، اللتين أَلِفتا من اليهود وجُود دينٍ سماويّ وفيه فِكرٌ لِلأنبياء والوحْي.

ولقد رأى أهل هَاتَيْن القبيلتَيْن في دين الإسلام ما يُذكَرهم بما ورَدَ فـي الدين السماويّ، فَتَهيَّأَتْ نُفُوسهم لِتَصْـديقهِ والسَّبْق إليه، وآنَسُوا أَيْضـاً في الدين الحنيـف رأبـاً للصَّدْع وجَمْعاً للشَّمل، وخلاصاً لهم مِمَّا يضيقُونَ بِهِ ذَرْعاً، بَعْدَ أن ماج مُجْتَمَعُهُم بالنزاع والعداء والفوضى.

☆ ☆ ☆



الْهِجْرَةُ

ولم يكُن أَثَرُ الهجرة مَطْلباً سَهْلاً. . . ، فسُرعان ما تَصَعَّبَ وتَوَعَّر. . . فما أن نمي إلى قريش عزم النبيِّ ﷺ على الهجرةِ متحالِفاً مع أَهْل «يَثْرب»، حتى آجْتَمَعُوا في دار النَّدْوَةِ، وتشاوَرُوا، فرأى البعضُ حَبْسَهُ ﷺ، والبعض الآخر نَفْيَهُ، كَما حَبَّذَ فريق قَتْله.

إلى أَنْ أَجْمَعُوا على أَنْ يُؤْخذ من كُلِّ قبيلةٍ فتىً ليُضْرب السَّيوف ضَرْبة رَجُلٍ واحد، وبذلك يتفرّق دمه في القبائل، ولا يستطيع «بنو عبد منافٍ» مُحاربةَ العَرَبِ جميعاً. وفي ذلك نزل قَوْل الله تعالى:

﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بكَ الذين كَفَروا لِيُثبتُوك أَوْ يَقْتُلوك أَوْ يُخرِجُوك وَيْمكُرونَ ويمكُرُ اللهُ واللَّهُ خَيْر الماكرين﴾[1].

☆ ☆ ☆

وأخبَرَ «جِبْريل» ـ عليه السلامُ ـ رسُول الله ﷺ بذلك وأَمَرهُ

(١) سورة (الأنفال): الآية (٣٠).

أَنْ لا يبيت في مَضْجَعِهِ، وأذن الله لهُ في الهِجرة.

وأَمَرَ النَّبيُّ ﷺ - «عَليّاً» كرَّمَ الله وَجْهَهُ - أن ينام في فراشِهِ بَدَلاً مِنْهُ، وقال له:

- إتَشِحْ ببُرْديَّ الحضْرَميّ، فإنَّه لن يَخْلُص إليْك أمْر تكْرهُه.

وباتُوا مُتَرَصِّدين.

ولَما أَصْبَحُوا وَجَدوا «علياً»، فَخيَّب الله سعيهم، وأَبْطَلَ ما كان من مَكْرِهم.

ولقد نَثَر النبيُّ ﷺ حَفْنَةً من التُّراب على رؤوس المشركين.

وظهَرَ لهم إبليس «في صورة إنسان، فقال لهم إن محمداً» مرَّ بِهِم خارجاً، وسَأَلُوا «عليّاً» عن «محمد» فقال لهم إنَّهُم أَعْلم بذلك، لأنهم وَصَلوا اللَّيْل بالنَهار في طَلَبِهِ، فَشَعَروا بالْخِزي والجْهل، وَوَلُّوا عَنْه.

✡ ✡ ✡

﴿ثانِي آثنيْن إذْ هُما في الغار...﴾

وَتَجهّز «أبو بكْر الصّدّيق» - رضي الله عنه - مهاجراً، فقال له النبيُّ ﷺ: على رِسْلِكَ فإنّي أَرْجُو أنْ يُؤذن لي.

قال «أبو بكْر»: وترجُو ذلك!؟؟ بِأَبي أَنْتَ وأُمّي!!.

قال: نعم

فَحَبَس «أبو بكر» نفسه على رسول الله ﷺ بصُحْبَتِهِ، ولجأ الرسُول ـ عليه الصلاة والسلام ـ إلى غارٍ في جَبَلٍ يُقال له: «ثَوْر»، ومكثا فيه ثلاثَ ليالٍ.

وطلب «أبو بكرٍ» إلى ٱبْنه «عبد الله» أن يَسْتمع لهما ما يقُول الناسُ نهاراً ويأْتيهما بالَأخبار ليلاً، كما كانت «أسماءُ بنت أبي بكْر» تأَتيهما بالطعام.

☆ ☆ ☆

وفي سَورة «التَّوْبة» خير وصفٍ لهما في الغار، يَقُول الله تعالى: ﴿إلاّ تَنْصروهُ فقد نَصَرَهُ الله إذْ أَخْرَجَهُ الَّذين كفروا ثانَي ٱثْنيْن إذْ هُما في الْغارِ إذْ يَقُولُ لصاحِبِه لا تَحْزَن إنَّ الله مَعَنا فَأَنْزَلَ الله سكينَتَهُ عليْه وَأَيَّدَهُ بجُنُودٍ لم تَرَوْها وَجَعَلَ كلمةَ الَّـذين كَفـروا السُّفْلى وكَلمَـةُ الله هي الْعُليـا والَّلهُ عـزيـزٌ حكيم﴾[1].

يقول «التَّنوخي» في كتابِهِ «الفَرَجُ بعد الشِّدَّة»[2]:

[وأَرْسَـلَ تَعالى عنكبـوتاً فَنَسَجَتْ في الحـال على بـاب الغار، وحمامة عَشَّشت وباضَتْ وأَفْرَخت للوقْت].

وروى أصحابُ الحديث في المحن التي لحقت بِهِ ﷺ

---

(١) سورة (التوبة): الآية (٤٠).

(٢) (ج١) (ص ١٩).

من المشركين ما يطول ذكره ويستفيض شرحُهُ، ولقد أَعْقَبَهُ الله من كُلّ تِلْك الشدائد بالنَّصْر المبين وإظهار دينِهِ على كل دين.

☆ ☆ ☆

ولقد سلك الركب الميمون إلى «المدينـة طريقـاً تلتفها المخاوف، إلى أَنْ بَلَغها بسلامة الله وحِفْظِهِ ورعايته.

وكان أوّل وُصُوله ﷺ إلى ضاحية «قُباء» في الثاني عشر من شَهْر ربيع الأَوّل يَوْم الإثْنيْن حين اشْتد الضّحاء وكادت الشَمْس تَعْتــدل، ونـزل على «بني عمــرو بن عـوْف» من الأنصار.

ويحدثنا «ابن إسحاق» عن بُلْوغه ﷺ المدينة، فيقول

ـ حدثني رجالٌ من قـومي من أصحاب رسـول الله ﷺ قالُوا: لَما سمعنا بمخرج رسول الله ﷺ من «مكة» وتوكَّفْنا[١] قُدومه كُنّا نخرج إذا صَلَّيْنا الصُّبْح إلى ظـاهر حـرَّتنا ننتَـظر رسُـول الله ﷺ، فوالله مـا نَبْـرح حتى تغلبنـا الشمس على الظلال، فإذا لم نجد ظِلّاً دَخَلْنا، وذلك في أَيَّامٍ حارَّةٍ.

حتى إذا كان اليْوم الذي قَدِم فيه رسول الله ﷺ جلسنا كما كنا نجلس، حتى إذا لم يَبْق ظِلٌّ دخلنا بُيوتنا، وقدم رسول الله ﷺ حين دخلنـا الْبُيُوت، فكـان أوّل من رآهُ رَجُـلٌ من

(١) توكّفنا: إنتظرنا.

اليهود، وقد رأى ما كُنّا نَصْنَع، وأنّا ننتظر قدوم رسول الله ﷺ علينا.

فصَرَخ بأعلى صَوْتِهِ: يا «بني قَيْلة»[1] هذا جَدُّكم[2] قد جاء.

فخرجنا إلى رسُول الله ﷺ وهُوَ في ظِلٍّ نَخْلةٍ، ومعه «أبو بكر الصديق» - رضي الله عنه -، في مِثْل سِنّه، وأكثرنا لم يكن رأى رسُول الله ﷺ، قَبل ذلك، ورَكِبَهُ النـاس[3] وما يعرفونَهُ من «أبي بكر» حتى زال الظِّلُّ عن رسُول الله ﷺ فقام «أبو بكْر» فَأَظَلَّهُ بردائِهِ، فعرفناهُ عند ذلك.

☆ ☆ ☆



(١) بنو قيلة: الأنصار (أو سهم وخزرجهم).
(٢) جَدّكم: صاحبكم.
(٣) ركبه الناس: اجتمعوا عليه وتزاحموا.

في ضيافة «أبي أيُّوب»
- رضي الله عنه -

ودخل النبيُّ ﷺ المدينة المنوَّرة راكباً فوق ناقته «القصواء».

ولقد حاول الكثيرون أَنْ يُمْسِكُوا بزمامها ليحُوزُوا شرف استضافَتِهِ ﷺ عِنْدَهَمُ، فكان - عليه الصلاة والسلام - يقول لهُم: دَعُوها فإنها مأمُورة.

حتى بركتْ في مرْبدٍ[1] لغلاميْن يتيميْن من أهل المدينة، هما: «سَهْل» و «سهيل آبنا عمرو» فاشتراه منهما ﷺ، وخصَّصه لبناء مَسْجِدِهِ وحُجُرات أزواجه.

☆ ☆ ☆

يقول «إبن هشام» في السِّيرة، (ص: ٣١٤) (المجلَّد الأول):

[فآحْتَمَل «أَبُو أَيُّوب» - خالد بن زَيْدٍ - رَحْلَهُ ﷺ، فوضَعَهُ

(١) المربد: المكان الذي يجفف فيه التمر.

في بَيْتِهِ، ونَزَل عليه رسُولُ الله ﷺ].

وهنا نرى «أَبا أَيُّوبٍ» ـ رضي الله عنه ـ يَدْخل التاريخ من أَوْسَع أَبْوابه.

ويقول الدكتور «حسين مجيب المصري» في كتابه ودراسته عن الصحابي الجليل «أبي أَيُّوب الأنصاريّ» ـ رضي الله عنه ـ:.

(العظيم من العظماء، لصفاتٍ تجري عليه أَوْ أعمالٍ تَنْتَسبُ إلَيه.

وقوام تِلْك العظمة إمّا صفة واحدة أو صفاتٍ عِدَّة، وعمل واحدٍ أَوْ أكثر، وفي حال التعدُّد والتَّشعُّب يُمْكن تمييز الأهمّ من المهم، وإفراد الأَشْهَرِ الأَسْيَرَ عن المعلوم ضِمْناً، والنظر إلى الراجح قَبْل المرجُوح.

وتَلْك حالُ «أبي أَيُّوب» ـ رضي الله عنه ـ وهو مَنْ تميَّزت شخصيَّتُهُ بِتَعَدُّد جوانبها إلى الحدِّ البعيد، مِمَا تَجْعَلُ واجبنا الأَوْجب في تصدّينا لدراسته أَنْ نكونَ على ذكر من تلك الحقيقة السالِفِ ذكرها، والتي لا يحمل بنا بحالٍ إغفالها.

فـ «أَبو أَيّوب» «مَنْ نَزَل عليه النبيِّ ﷺ حين قَدِم المدينة مهاجراً، أي أن سيِّد المرسلين وخير البشر حَلَّ عليه في داره ضيْفاً، وهذا أَوَّل وأَهَمْ ما رفعه إلى أوج الشرف والرُّتْبة التي لا غاية بعدها لأملٍ، كما جعله صاحب الشهرة المستفيضة بذلك والصِّيت البعيد).

ثم يفيض الدكتور «المصري» في الحديث عن الضيافة ومعانيها وأصولها وآدابهـا، مستشهداً بـأحاديث لـرسول الله ﷺ، منها قوله:

[أَيُّما مُسْلم ضاف قَوْماً فَأصْبَحَ الضَّيْف محروماً، فإن نَصَرَهُ حقٌّ على كُـلِّ مسلم حتى يـأخــذ بِقِـرى ليلتــه من زَرْعـه وماله].

ومنها:

[إنَّ من السُّنَّـةِ أَنْ يَمْشي الرَّجُـل مـع ضيْفِـهِ إلى بـاب الدّار].

ويَقُول الشاعر:

وَإنّي لَعَبْـد الضَّيْف من غَيْـرِ ذِلَّـةٍ
وما فِيَّ إلاَّ تلك من شيمة الْعَبْـد

ويقول المثل الفارسّي: الضَّيْف هَدِيَةَ الله.

ويقول المثل التركيّ: للِضيف الرعاية كل الرعاية.

☆ ☆ ☆

ونترك الحديث لـ «أبي أَيُّوبِ» ـ رضي الله عنه ـ يُحدِّثنا عن تِلْك الضيافةِ وظُروفها، يقولُ «أبو أَيُّوب».

ـ لمّا نَزل رسّول الله ﷺ في بَيْتِي نَزَلَ في السّفْل وأَنا و «أُمُّ أَيوبِ» في العُلْوِ، قُلْتُ له: يا نبيَّ الله ـ بأبي أَنْتَ وأُمّي، إني لأَكْرَهُ وَأُعْظِمُ أَنْ أَكونَ فوقَكَ وتكُونَ تَحْتِي، فاَظْهَرْ أَنْت وكُنْ

في العُلْوِ ونَنْزِل نَحْنُ في السّفْل.

فقال - ﷺ - :

- يا «أَبا أَيُّوب»، إن أَرْفُق بنَا وبِمَنْ يَغْشانا أن نكونَ في سفْل البيْت.

قال: فكان رسُولُ الله ﷺ في أَسْفله وكُنّا فَوْقَهُ في المسكن؛ فقد أنْكَسَر حِبٌّ[1] لنا فيه ماء، فَقُمْتُ أنا و «أُمّ أَيُّوبٍ» بقطيفةٍ لنا، مالنا لحافٌ غيرهاتنشّف بها الماء تخوُّفاً أَنْ يَقْطر على رسُول الله - ﷺ - منه شيْء فَيُؤْذيه[2]، وأَمر النبيُّ ﷺ بمتاعِهِ أَنْ ينْقل، ومتاعُهُ قليل[3].

☆ ☆ ☆

ويتابع «أبو أَيُّوبٍ» الحديث فيقول:

- وكُنَّا نَصْنعُ له العَشاء ثُمَّ نبْعَثُ بِـهِ إليْه، فـإذا رَدَّ عليْنا فَضْلَهُ تيَمَّمتُ أنا و «أُمّ أَيُّوبٍ» فَوَضع يده فأَكَلْنا منه، نَبْتَغي بذلك البركة.

حتى بَعَثْنا إليْه ليْلة بعشائِهِ وقد جعلْنا له بَصَلاً أَو ثُوماً، فَرَدَّه ولم أَرَ ليدِه فيه أَثَراً.

---

(١) السيرة (ابن هشام) (ج١) (ص ٤٩٨) - القاهرة (١٩٥٥).

(٢) (الإستيعاب) لـ «ابن عبد البر» (ص ٤٢٥) (القسم الثاني) القاهرة (١٩٥٣).

(٣) السيرة (ابن هشام) (ص ٤٩٩) (ج١) (١٩٥٥).

قال:

فَجئتُهُ فَزِعاً فَقُلْتُ: يا رسول الله ـ بأبي أَنْتَ وأُمّي ـ رددْتُ عشاءَك ولم أَرَ فيه مَوْضع يدك، وكُنْتُ إذا رَدَدْتُهُ علينا يَمَّمْتُ أنا و «أُمَّ أَيُّوبَ» مَوْضع يَدِكَ نَبْتغي بذلك البركة.

قال ـ ﷺ ـ:

ـ إني وجدتُ فيه ريح هذه الشَّجَرة (يَعْني الْبَصَل أَو الثُّوم) وأَنَا رَجُلٌ أناجي (يَعْنِي رَبَّهُ سُبْحانهُ وتعالى)، فأمّا أَنْتُم فكُلُوه.

قال:

ـ فأكَلْناهُ، ولم نَصْنَعْ له هذه الشَّجرة بَعْدُ.

هذه المنزلة التي نالها «أبو أيُّوب» ـ رضي الله عنه ـ تَرَكَتْ أَثرها في نُفوس الصحابَةِ جميعاً، من المهاجرين والأَنصار، على حَدّ سواء، وتَسلْسلت من بَعْدِهم إلى نفوس التابعين والمسلمين عامَّةً، على مُخْتلف ديارهم وأجناسِهِم ولُغاتَهم.

يروي لنا «ابن كثير» ـ رحمه الله ـ في (البداية والنهاية):

أَنَّ «أبا أَيُّوب» ـ رضي الله عنه ـ حين قَدِم «الْبَصْرة» مرَّةً، وكان «ابن عباسٍ» ـ رضي الله عنهما ـ نائباً عليها، خَرَجَ لَهُ عن دارِهِ وأنزَلَهُ بِها...

ولّما حانَ انصرافُهُ عَنْها خرَج له عَنْ كُلّ ما حَوَتْهُ، كما وَهبَهُ تُحفاً، وأَرْبعين عَبْداً، إكْراماً لِأَنَّهُ أَنْزَل الرسُولَ ﷺ في دارِهِ، وكان ذلك من أَعْظم الشرف له ـ (إ. هـ).

دارُ «أبي أيُّوب»

- رضي الله عنه -

ولقد أُحيطَتْ بـ دارِ «أبي أيُّوب» - رضي الله عنه - هالَةٌ من الْقَداسة، وكثرتْ في هذا الشَّأْنِ الروايـات المتعدِّدة، وفي أكثرها خيالٌ جامِحٌ يَبْلُغُ حَدَّ الأسطورة.

ومما يُروْى:

أن مَليكـاً من مُلُوكِ اليمن القُـدمـاء، أَوْغَـلَ فـي أَرض الحجاز، فَسَمِعَ هناكَ من جماعة من العلماء والحكماء أَنَّ الله - تعالى - سوْف يَبْعَثُ خاتم الأنبياء في «مكة»، وسيهاجرُ منها إلى «يثرب»، ويَبْقى بها إلى أن ينتقل إلى دار القرار.

ولـمّا عرف ذلك مَنْ في حاشيتِهِ من العلماء حتى رَجُـوهُ وسألُوهُ أن يَسْمَح لهم بالمقام في تلْك الأرض، ويبني لِكُلّ منهم داراً، آملين أَنْ يَلْتَقُوا بالنبيِّ المنتظر.

وصادف رجاءُ العلماء أُذناً واعيةً من الملك وقَلْباً رحيماً، فابتنى لهم الديار، وبَيْنها دارٌ ليُقيم فيها النبيُّ بعد هجرتِهِ من «مكة».

وكان هذا الملكُ يَعْمل بما جاءَ في «الزُّبُور»؛ وآسْتَدْعى ذات يَوْم رئيس العلماء وقال له إنه يؤمِّـل إدْراك النبيّ، ثم دَفَعَ إليه رسالة طلب أَنْ يسلِّمها إلى من جاؤوا بعده، الواحد تلو الآخر، حتى يَصلَ إلى يد الرسولِ ﷺ؛ يقول في تلك الرسالة:

(أَمَّا بعد، يا «محمد» فإني آمنْت بكَ وبربِّك، ورب كل شيْء، وبكُـلّ مـا جـاءَك من رَبِّـك من شـرائـع الإسـلام والإيمان . .

وإني قلتُ ذلـك، فـإن أدْرَكْتُـك فيهـا ونعْمَتْ، وإن لم أدْركك فآشْفَع لي يوْم القيـامة، ولا تَنْسني فـإني من أَصل الأوَّلين، وبايَعْتُك قبل مجيئك وقبل أن يـرسلك الله، وأنا على مِلَّتِكَ ومِلَّة «إبراهيم» ـ عليه السلام ـ)[1].

وتمضي هذه الرواية إلى أبعد من ذلك، فيؤخذ منها أن الدّار التي آبْتناهـا تِلك مَلِك الْيَمن للنبي ﷺ أَصْبَحَتْ دار «أبي أَيُّوب»!!!، كما أَنَّـه ﷺ تسلَّم الرسـالة من يـدِ «أبي أَيُّوبٍ» ـ رضي الله عنه ـ وقال:

ـ مَرْحَباً بـ «تُبَّعٍ» الأخْ الصالح.

كمـا قيل أَنَّـه ﷺ نهى عن سَبِّ «تُبَّـعٍ» لأَنَّـه كـان من المؤمنين.

---

(١) Ogut Meshur Sulran Eyyub (72 - 73) (istanbul 1957).

ويقُول «البيْضاوي» في تفسيره عن هذا الملك اليمني أَنَّه «تُبَّعُ الْحميْريّ» الـذي قاد الجيُـوش وحَيَّر «الْحيـرة» وبنى «سَمَرْقَنْد»، وكان مؤمناً، وقومُه كافرين[1].

وَعَنْهُ ﷺ أَنَّه قال:

- [ما أَدْري أكان «تُبَّعُ» نبيّاً أَمْ غير نبيّ]!!؟؟

☆ ☆ ☆

أَمَـا في شَرْحِ قصيـدة «نَشْوان الحُمْيـريّ»، المعـروفـة بـ «خُلاصة السيرة الجامعة لعجائب أخيار المُلُوك التبابعة» فهُو على التحديد: «أَسْعَدُ تبَّع» الملك العظيم والشاعر الفصيح، والعارف بأَحْكام النجوم، الذي نهى النبيّ عن سَبّه، وأَخْبَرَ بالنبِّيّ ﷺ في قوْله[2]:

شَـهِـدْتُ عـلى أَحْـمـدَ أَنَّـه
رسـولٌ مِـن الله بـاري الـنَّـسَـم
فَـلَوْ مُـدَّ عُـمْـري إلـى عُـمْـرِه
لَـكُـنْـتُ وزيـراً لـهُ وَابْـن عَـمّ
وَأَلْـزَمْـتُ طـاعَـتَـه كُـلَّ مَـنْ
على الأَرْضِ من عَـرَبٍ أَوْ عَجم

---

(١) تفسير البيضاوي (ص ٦٥٧) (القاهرة ١٩٤٧).

(٢) نشـوان الحميـري (مُلوك حِمْيـر وأقـيال اليمن) (ص ١٢٢) (القـاهـرة ١٣٧٨).

وَأَجْـعَـلُ نَفْـسِي لَـهُ جُـنَّـةً
وأُفْـرِجُ عن صَـدْرِهِ كُـلَّ هَـمّ
نَـبِيٌّ وَجَـدْنـاهُ فـي كُـتبـنـا
بِـهِ يُـهْتَـدى وَبِـهِ يُـعْتَـصَـم

ومن الرواة من ذكر المعجزات والأعاجيب التي وقعت لـ «أبي أَيُّوبٍ» ـ رضي الله عنه ـ أَثناء نزول النبيّ ﷺ ضيفاً عليه.

فمما يُروى:

أن رسُول الله ﷺ أَمَرَهُ أَنْ يضيف ستينَ رجُلاً معه، وصدع «أَبو أَيُّوب» بما أُمِر، وقَـدَّم للضيوف الطعام، فـأصابُـوا ما أشبَعَهُم، ودعا الرسول ﷺ ستّين غيرهم أيْضاً.. ، كما دعا «أبـو أَيُّوب» مِثْلَهُم في عَـدَدِهم، فَـوَجَـدُو جميعـاً مـا سَـدَّ جوعتهم.

☆ ☆ ☆

وبالعوّدة إلى ذكر بيتِهِ ـ رضي الله عنه ـ نجد من يشير إليه بعد الهجرة بأكثر من أَلف سنةٍ، وهُو «إبن العماد» المتوفى عام (١٠٨٩ هـ)، فهُو القائل إن مَوْضع بيْته الذي أقـامِ فيه رسول الله ﷺ، بنيت فيه مدرسة تُسمى الشهابيَّة، كما أنَّ فيه مَوْضِعاً يُسمّى: المَبْرك، والمراد بذلك مَبْرك ناقَةُ رسُول الله ﷺ.

☆ ☆ ☆

ومِمّا سَلَف من خَبَرٍ وَأَثَرٍ نُدْرك أن تلك الضيافة قَدْ رفعت «أبا أَيُّوبٍ» مكاناً عالياً، وجعلت له الصيت الخفّاق في جميع الآفاق، كما كان لها الرُّجحان على كُلّ مالهُ من مناقب ومحامد، ولكن مِمّا لا يحتمل شُكاً ولا تأْويلاً أَنَّ «أبا أَيُّوبٍ» عند التُّرْك أَعْظم قدْراً وأَنْبَهُ ذِكْراً، وله إسْم معروف في تاريخهم دائر على أَلْسِنَتِهِم.

فهو ؛ عندهم ـ الصحابي الأشهر، والوليُّ الأعظم، وإذا ذهبْنا نتلمَّس لذلك سبباً عرفنا أَنَّه دُفِن في أَرْضِهِم وأُقيم له ضريحٌ ومسجد ملء عُيُونهم وقلوبهم، وارتبط مسجده كما سَنَعْلَم من بعد بتواريخ سلاطينهم، كما أطلق إسمه الكريم على حيّ من أَحْياء «إستانبول» مدينتهم.

ومن حَيْث كان الشعر تعبيراً عن النفس المتأثّرة حَتْماً في عُمقها بما يَحُوج خارجها من حوْلها، وتفسيراً لمعاني الحياة التي تتداعى بما يُشاهِده الإنسان ويفكر فيه، كان الشعر مُرجعاً من مراجع التاريخ، أَهَمّيّته وشاهداً له حُجِّيَّتُهُ.

☆ ☆ ☆

فهذه منظومة لأميرةٍ من أميرات «آل عثمان» إسْمُها: (عادلة سُلْطان)، وسُلْطان لَقَبٌ يُطْلِقه الترك على كريماتِ السلاطين، وكانت مستفيضة الشهرة بتقْواها وسخائها وأشعارها الجياد، التي يجمعها ديوان يقول أحد أصحاب تراجم البلغاء إنه شاهده، وكانت وفاتها عام (١٣١٦ هـ).

وهي في المنظومة تصفُ هجرة الرسُول ﷺ إلى المدينة، وما كان من نزوله بدار «أبي أيُّوب» - رضي الله عنه -، ثم تختمها بخبر خروجه إلى «القسطنطينية» غازياً، ثم انتقاله فيها إلى دار البقاء.

وكان للأميرة حافز على النّظم في هذا الغرض من تَقْواها، وباعث في الصميم من قَلْبٍ طهور رقَّقهُ حُبُّ الرسول الكريم ومن يَتَصل منه بسبب، ولاَ بِدْع في ذلك، فإنَّ التُّرك ساروا بِسنَّة الإسلام على الطريق الأقْوم، والنبيُّ عندهم بأعْظم منزلة وأرفعها، وهُم يُحبّونَهُ حُبّاً صوفيّاً لأنَّه عِشق للذات العليَّة وكان أكرم عشاقهـا، وفي شعورهم يـرمزون بـالإسْراء والمعـراج إلى النفس الإنسانية في سُمُوِّها صُعْداً إلى الله.

✡ ✡ ✡

وَذِكْرُهُ ﷺ يُفضي إلى ذكر مُضيفه وإلى وَصْف هجرته، وما تَتَّسع معانيها له من كل ما يُوحي به العزْم على المضي قُدماً في سبيـل الحق، والاهتداء بنـور الإيمان في مـدلهمِّ الخُطُوب، والصّبْر وهو مريرٌ على الأذى، والرغبة الحكيمة في إعْلاء كلمة الله.

تقول الأميرة «عادِلَةُ»:

سَيِّد السادات فخر الأنبياء

المصْطفى، خيرةُ مَنْ في العالمين على السواء.

بَزَغ بالسَّعْد في مكّة هذا القمر

وفيها ثلاثة وخمسين عاماً آسْتَقَرَّ
ومن بعد بالهجرة أَمر
لخيْر مَن في المدينة من بَشر
وخَرج أَهْل يثرب له مُسْتَقْبلين
وَهَرَع المنتظرون للقائِهِ عجلين.

ثُمّ تَنْتقل إلى السَّرْدِ القصيصيّ، فَتَقُول:
ومدَّ كُلٌّ منهم إليه يد ضراعته قائلاً:
يا مُقيل المسكين من عَثْرتِهِ
إذا تقبَّلْت مِنّي عبوديتي
فآنْزل يا قوام الدين بدُويْرتي
يا من أَنْتَ للرحمة معدنَ وللعناية مَنْبع
ولعُشاقك المدْلهين من يَشْفَعْ.

ثُمّ قال بحكمتِهِ الرسُول:
أَيّما مكانٍ لناقتي فيه النزول

أنا بدارِهِ أحلّ
وبها كالبَدْر المُطِلّ

ولّما كان في يد جبريل الأمين الزمام
أَصْبَحَ هُنالك المقام

«خالد» ابن الأنصاريّ هذا الرجل
وهُو مضيف سيِّد الرُّسُل.

وبذاك الشرف نال السؤْدد
وغبطه على ذلك من أصحابِهِ كُلّ أحد
لا سبيل إلى وصف عظمته
إنما الضيافة سِرُّ عِزَّتِهِ
كان لوجْه جمال الله عاشقاً
عليم القلْب بالنار محترقاً

☆ ☆ ☆

وعلى هذا النحو تبرز الشاعرة أَخَصّ صفات «أبي أَيُّوبٍ» ـ رضي الله عنه ـ وتميزه بما ذاع لهُ بعيد الصيت عند الترك خصوصاً، وهو تلْك الضيافة الكريمة التي ارتبطت بمشيئة الباري جَلَّ وعلا، وتمَّتْ بما ذُكر من عطف «جبريل» زمام الناقة نحو دار «أبي أيُّوب».

ونتكفي بهذا القدْر من قصيدة الأميرة «عادلة سُلْطان»، والتي تتجلى فيها ثقافتها الإسلامية الواسعة، مع نزعتها الصوفيَّة البارزة.

☆ ☆ ☆

وفضلاً عن النَّظم باللُّغَةِ التركيَّة للمدائح النَّبويَّة، أو المعاني الدينيَّة عامَّة، فإنَّ هناك بعض الشعراء الأتْراك قد نَظَم باللُّغَة العربية في هذا الصَّدَدِ..، إلا أَنَّ شعْرهم لم يكُن متين السَّبْك ولا مُشرق الديباجة، لأنهم نظموهُ تطبُّعاً ولا

طبْعاً، فقط للتباهي بأنهم يملكون ناصية لُغة القرآن؛ وهذا عندهم من أعظم الشَّرف. . .

وهذه قصيدة ـ نموذج ـ، يقول عنها «جمال أُوغت» [Ogut] إنها لشيخٍ من شيوخ الإسلام في تركيا، من أهل القرن السابع عشر للميلاد، مرقومَةً على لوحَةٍ رخاميَّةٍ في جدار ضريح «أبي أَيُّوبٍ» في «استانبول»؛ يقول فيها:

أكْرم «أبا أَيُّوب» عندك «خالِداً»
يا رَبِّ في جَنَّاتِ خُلْدِك خالداً
اللّهُ شرَّف قَدْره فأَناخ في
مأواه راحلة النبيِّ المفْقدا
آوى النبيَّ المصطفي فتبوأ
في الدار والإيمان في هَدْي الهُدى
هُو كان من حيْث الإضافة سابقاً
من سادَةٍ نصروا النبيَّ «محمَّدا»
نِعْم الإضافة والضيافة حَبَّذا
ضيْف كريم الخْلق فيّاض النَّدا
فَأقام بالْبَركاتِ سَبْعَةَ أَشْهُرٍ
في دارِهِ حتى أَتَمَّ المسْجدا
باللَّيْل كان يَطُوف حوْل جنابِهِ
حِفْظاً لهُ لسِلاحِهِ مُتقلِّدا

فـدعى لـه فخـر الـورى فِـلأجْلهِ
حيّـاً وميْتـاً حينَ من كَيْــد العِـدا

✡ ✡ ✡

ونعودُ إلى الأميرة الشـاعرة «عـادلة سلْطان» في قصيـدةٍ تَخُص بها «أبا أيُّوبٍ» ـ رضي الله عنه ـ، من أَلِفها إلى يائها، في رُوحانية وصُوفيَّة عالية.

تَضْـرعُ إليه أن يكـونَ وسيلتهـا إلى الله تعالى وشفيعهـا عنده، لأنَّه مَقبُول الشفاعة بفضل مالَهُ من علُوّ المنزلة لدى رَبِّ العالمين، بضيافتِهِ رسُول الله ﷺ، فهي منزلة ما بعدها منزلة، ومقام ما بعده مقام.

وهي في استشفـاعها «أبـا أيُّوب»، عنـد رَبِّ العالمين، تذكره بكـل خير وصـلاح، مُطْنِبـةً في فضائله، مثنيـةً على خلالِهِ، ونختَارُ منْها هذه الأبيات:

هُوَ ذَا اللطف والكرم
أبو أَيُّوب الأنصاري
ومَنْ حمل للنبيِّ العلم
أبو أَيُّوب الأنصاري
الكافر بفضْل منه متهور
ولواؤه الطهور منصور
فخفق قلْب المسلمين بالحُبُور
أبو أَيُّوب الأنصاري

إشْفعْ لنا
وآرْع أَمْرنا
وعلى الله ذلَّنا
وأفعم بالرِّقَّة قلبنا
أبو الأيُّوب الأنصاري

☆ ☆ ☆

وهكذا تُصْبحُ هذه القصائد وأمثالها في مدْح «أبي أَيُّوب» ـ رضي الله عنه ـ أنـاشيد يُردِّدها الذاكرون في مجالسهم وفي المنـاسبات، وتـرسخُ عنـد عامتهم وخـاصّتهم مكانَـةُ «أبي أيُّوب» ـ رضي الله عنه ـ وتعْلُو مَنزِلَتهُ عُلُوّاً عظيماً.

☆ ☆ ☆

المُحدِّث عن رسُول الله ﷺ

مما يستقيم في العقْل مداهةً أن يكون «أبو أيُّوبٍ»، صاحبُ رسُول الله ﷺ ومضيفه، روايةً للحديث.

يقُول «أسْعَد أفندي» شَيْخ الإسلام في عَهْد السلطان «عثمان الثاني»، في قصيدةٍ لَهُ، عن «أبي أيُّوبٍ» - رضي الله عنه -:

هُو صاحِبٌ لنبيِّنا ومُصاحب
كمْ من حديثٍ عنه يروي مُسْندا

☆ ☆ ☆

وقبل الاسْتِرسال في التحدُّث عن هذه الناحية - ناحية الرِّواية - نُشير إلى مكانةٍ تَبَوَّأها «أبو أيُّوب» - رضي الله عنه - في عهْد النبيِّ ﷺ، إذ كان من أَهْل الصِّفَّةِ، كما يَقُول «أبو نَعَيْم الأَصْبهاني» في «حِلْية الأولياء»[1].

(١) «حلية الأولياء» (ص ٣٦١) القاهرة - ١٩٣٢.

وأَهْـل الصّفَّةِ هُمْ جمـاعـةٌ من الصحـابـة ـ رضْـوانُ الله عليهم ـ كانُوا مُلازمين لمسجدِهِ ﷺ يَتَعبَّدون فيه، قاطعين ما بَيْنهم وَبَيْن الدُّنيا من أسباب؛ وقيل إن الله عَزَّ وجل عاتَب نبِيَّه ﷺ فيهم بقـوْله: ﴿ولا تَـطْرُدِ الذين يدعُون رَبَّهم بالغَـداةِ والْعَشِيّ﴾، كما أثنى الرسُول الكريم عليهم الثناء كُلّه.

قيل إنَّه وقف عليهم فرأى فَقْرَهُم وجهْدهم وطيب قُلُوبهم فقال:

ـ أَبْشِـروا يا أصحـاب الصّفَّة، فمن يَقِيَ من أُمَّتي على النَّعْت الذي أنْتُم عليه راضيـاً بما فيـه فإنَّـه من رفقائي في الجنَّة [١].

ولما اختلف المخلفُون في نسبة الصُّوفي، رأى بعضهم نسبته إلى أَهْلِ الصّفَّةِ [٢].

☆ ☆ ☆

وعلى ذِكْر أَهْل الصّفَّةِ نقول إنهم كانوا يَصْحَبُونَ النبيّ ﷺ ويلزمُونَ مجالِسه ويحفظون عنه كل ما قال وعمل ثم يحملون الأمانة ليؤدُّوها إلى الناس، ومن هؤلاء «أبو هريـرة» ـ «عبد الرحمن بن صَخْر الدّوْسيّ» الذي كان أكثر الصحابة حديثاً

---

(١) كشف المحجوب (ص ٩٧).

(٢) د. قاسم غني: تاريخ تصوُّف درْ إسلام (ص ٢٨) (ج١) (طهران ١٣٢٢ شمسي).

عَنْه ﷺ، كما كانُوا معه إذا آرْتَحل عن المـدينة غـازياً، أو حاجّاً، فما خَفَيتْ عليهم شارِدة ولا واردة من أَمْرِه[1].

وَلِما كان بَيْن رسُول الله ﷺ وبَيْن «أبي أَيُّوبٍ» من طُولِ صُحبةٍ ووثيقِ حِيلةٍ، كأَنَّي له ـ رضي الله عنه ـ أن يطَّلع على خاصّ من شأنِه ﷺ، ويعلم عنه ما لا عِلْم بغَيْرِهِ بِهِ، فكان بالتّالي صائب الرأي صحيح الحكم؛ وتضرب لذلك مثلاً ما ذكره ابن كثير في «البداية والنهاية» من أَنَّه القائل لزوّجتِهِ «أُمِّ أَيُّوب» حين قالت له) أما تَسْمع ما يَقُول النّاسُ في «عائشة»؟ فقال: أكنت فاعلةً ذلك يا «أُمَّ أيُّوبٍ»؟ فقالت: لا، والله، فقال والله لَهِيَ خَيْر منك.

وهذا متعلّق بحديث الإفْك؛ والقصَّة فيه مشهورةٌ معروفة.

☆ ☆ ☆

غير أَنَّ المحدّثين يختلفون كثيراً في عَدَدِ ما يُنسب إلى «أبي أَيُّوب» من أحاديث، وفي الإمكان حَصْر تلْك الأحاديث بَيْن مائتيْن وعشرة عند منن نَسبُوا إليه العدد الأكبر، وثلاثـة عشر عند من نَسَبُوا إليه العدد الأصْغر.

ومن جملة أحاديثه التي رواها وهُوَ غازٍ في بلاد الروم، فقد قيل إن «عُقْبَة بن عامرٍ» وهو في «القسـطنطينيـة» صلّى المغرب فَأَخَّرَها، فقال لهُ «أبو أيُّوب»:

---

(١) سليمان الندوي (دفاع عن الحديث النبوي) (ص ١١) (القاهرة).

ـ يا «عُقْبَة» أتُؤَخّر المغرب هذا التأخير وأَنْتَ من أَصْحاب رسُول الله فيراك من لم يصْحبه فيظن أنّه وقتها!!

فقال مَنْ يُدْعى «أبا عمْران» لـ «أبي أَيُّوب».

ـ فمتى وقْتها؟

فقال:

ـ كُنّا نُصلّيها حين تجب الشَّمْس نبادرها طُلُوعَ النُّجُوم.

☆ ☆ ☆

وقال بعض مجاهدي المسلمين في «القسطنـطينية»: إنّ جَمْعاً عظيماً من الروم خَرَج على المسلمين، فحمل أحد المسلمين المجاهدين على الروم، ودَخل في صُفُوفهم ثُمَّ خَرَج؛ ولمّا شاهده من كان معه من المحاربين حتى صاحُوا قائلين: سُبْحان الله... أَلْقى بيَدِهِ إلى التهلكة..، فقام «أبو أَيُّوب» قائلاً: أَيُّها الناس إنكم لتؤلون هذه الآية على هذا التأويل، وإنما نزلت فينا معشر الأنصار، فلّما أَعَزَّ الله دينه وكثّر ناصريه، قُلْنا فيما بَيْننا بعضنا لبعْضٍ سِرّاً من رسُول الله ﷺ: «إن أمْوالنا قد ضاعت فَلَوْ أنّا أَقَمْنا فيها فأصلحنا ما ضاع منها، فَأَنْزَل الله في كتابِهِ يردُ علينا ما همْمنا بِهِ: ﴿**وَأَنْفِقُوا في سبيل الله ولا تُلْقُوا بأيْديكُم إلى التّهْلكة**﴾[1].

فكانت التهلكة أن نُقيم في الأموال ونُصْلحها، فأمرنا بالْغَزو.

---

(١) سورة (البقرة): الآية (١٩٥).

أما التهلكةَ فقد فُسِّرتْ على وُجُوهٍ شتى، فالراغب الأصْفهاني في مُفْرداته يَجْعل الهلاك آفْتقاد الشيْء عَنْك وهُو عند غَيْرك موجود كقوله تعالى: ﴿هَلَك عَنْي سُلطانِيهْ﴾[1].

وهلك الشيْء باستحالة وفساد كَقَوْلِهِ: ﴿ويُهْلك الحرْثَ والنّسْل﴾[2]. والهلاك: الموّت، ﴿إن آمْرؤٌ هَلَك﴾[3]، وقال تعالى مُخْبراً عن الكُفّار ﴿وما يُهْلِكُنا إلاّ الدَّهر﴾[4].

ولم يذكر الله الموْت بلَفْظِ الهلاك.

كما أَنَّه بطلان الشيْء من العالم وعدمه رأْساً، وذلك المسّمى فناء المشار إلَيْه بقَوْله: ﴿كُلّ شيْءٍ هالكٌ إلاّ وَجْهه﴾[5]؛ ويُقال للعذاب والخْوفِ والفقْر: الهلاك؛ وعلى هذا قوله: ﴿وإن يُهْلِكون أَنْفُسهم ما يَشْعُرُون﴾[6].

إلى أن قال الراغب الأصْفهاني: «إنَّ التهلكة ما يؤدّي إلى الهلاك، واستشهد بقوْله تعالى: ﴿ولا تُلْقوا بأَيْديكُم إلى الْتهْلكة﴾[7].

---

(١) سورة (الحاقة): الآية (٢٩).
(٢) سورة (البقرة): الآية (٢٠٥).
(٣) سورة (النساء): الآية (١٧٦).
(٤) سورة (الجاثية): الآية (٢٤).
(٥) سورة (القصص): الآية (٨٨).
(٦) سورة (الأنعام): الآية (٢٦).
(٧) سورة (البقرة): الآية (١٩٥).

وفَسَّر الجلالانِ، جلال الدين السَّيُوطي وجلال الدين المحلّي - التهلكة في هذه الآية بأنها الهلاك بالإمْساك عن النفقة في الجهاد أَوْ تركه لأنه يقوي العدوّ على المسلمين، وعند «التسفيِّ»: أنها تَرْك النفقة في سبيل الله لأنه سبب الهلاك، أو عن الإسْراف في النفقة حتى يُفْقر الإنسان نفسه ويُضيع عياله، أو عن الإخطار بالنفس، أو عن تَرْك الغزو الذي هو تَقْوية للعدو[1].

أما البيضاوي فيفسّرها بالإسْراف وتضييع وجْه المعاش أو الكفّ عن الغزو والإتفاق فيه لأن ذلك يسلّط العدو على إهلاك المسلمين.

ثُمَّ يقُول:

ويُؤيَده ما رُوي عن «أبي أَيُّوب» الأنصاريَ - رضي الله عنه - أَنَّه قال: لمَا أعزَّ الله الإسلام وكثر أَهْله رَجَعْنا إلى أَهْلينا وأَمْوالنا نُقيم فيها ونُصْلحها، فَنَزَلت،

أَوْ بالإمْساك وحُبّ المال فإنَّه يُؤَدِّي إلى الهلاك.

☆ ☆ ☆

ويُؤْخذ من هذا أَنَّ «أبا أَيُّوب» أَحَسَنَ صُنْعاً بإيضاح معنى التهلكة لأصحابِهِ الذين شاؤوا أَنْ يَنْصَرفُوا عن خوْض الغمرات جَهْلاً منهم بالمعنى الأَصح لِلْكلمة، وأَقْنَعَهُم

---

(١) التسفي (تفسير القرآن الجليل) (ص ١٢٥ ج١).

بضرورةِ الجهاد الذي لا يَنْبغي تقاعسهم لسبب كائناً ما كان، فإن في مُداومتهم عليه دواماً لبقائهم، كما أَنَّ صَـدُّهم عنه معجّل محْتوم فنائهم.

☆ ☆ ☆

وروى من قـال: إن مـرْسىً في البحـر جمـع بعض المجاهدين المسلمين و «أبا أيُّوب» معهم، فلمّا خَضَر الفداء أرسلوا إلى «أبي أيُّوبٍ» وأَهْل مركبه، فأتى ـ رضي الله عنه ـ وهو يقول: دعوْتموني وأنا صائم، فكان عليٍّ من الحق أن أُجيبكم، إني سَمِعْتُ رسول الله ﷺ يقول:

ـ [إن للمُسْلم على أخيه المسلم سِتَّ خصال واجبة، فمن ترك خصلةً منها تـرك حقاً واجبـاً لأخيه عليـه: إذا دعاهُ أن يجيبه، وإذا لقيَهُ أن يُسَلِّم عليه، وإذا عَطَس أن يِشمِّتَهُ، وإذا مَرِضَ أن يعودَهُ، وإذا مات أن يُتبع جنازته، وإذا اسْتَنْصَحَ لهُ أن يَنْصَحَه][1].

☆ ☆ ☆

كما تُروى عنه ـ رضي الله عنه ـ أحاديث متضمنة ما كان يدور بينه وبين رسُول الله ﷺ من كلام، وفي هذا دلالة على أن النبي «عليه الصلاة والسلام» كان يؤْثره بالسيِرٍّ، ويبسط عليه جناحاً من رعياته.

---

(١) رواهُ «ابن عبد الحكم» من فُتوحِ مِصْر وأخبارها (ص ٢٦٩، ٢٧٠) (ط ـ ليدن ١٩٢٠).

فهو القائل:

[إن الرسُول ﷺ قال له: يـا «أبا أيُّـوب» ألا أَدُلك على صَدَقَةٍ يرضى الله عَزَّ وَجَلَّ مُوضِعها؟ قُلْتُ: بلى يا رسُـول الله. قال: تَسْعى في إصلاح ذات البيْن إذا تفاسدوا، وتُقارب بينهم إذا تباعَدُوا][1].

☆ ☆ ☆

ولِـ «نور الدين علّي الأنصاري العراقي الشافعي» المتوفى عام (٩٤٠ هـ) كتاب إسْمه: (العبير الساري في أحاديث أبي أيُّوب الأنصاري)؛ ومنه نسخة مخطوطة بإحدى المكتبات في تركيا.

والكتاب قسمان، أولهما في سيرة «أبي أَيُّوب» ـ رضي الله عنه ـ وثانيهما فيما رواه من أحاديث النبيِّ ﷺ.

ولقد إطلع على هذا الكتـاب وأفادَ منـه الكاتب التـركي: «جمال أُوغوت»، ونحن نُورِدُ طائفة مما جاء فيه؛ مستشهدين على المنزلة العالية التي بلغها «أبو أَيُّوب» بَيْن المحدّثين.

فعَنْهُ أن رسُول الله ﷺ قال:

[عَظَمَ الأجْر عنـد عَظَم المصيبـة، وإذا أَحَبَّ الله قَوْمـاً أبْتلاهم].

ويذكّرنا هذا الحديث بحديثٍ آخر يتضمْن نَفْس المعنى

---

(١) [لُباب الآداب) ـ أسامة بن منقذ (ص ٣٠٢) القاهرة.

ويزيده تفصيلاً، هُو قوله ﷺ:

[أَشَدّ الناس بلاءً الأنْبياء ثم الأمْثل فالأمْثل. . .]

إلى أن قال: عليه الصلاة والسلام ـ:

فما يَبْرح البلاء بالْعَبْد حتى يتركه يمشي على الأرض وما عليه خطيئة].

☆ ☆ ☆

ولقد نَظَم الشاعِر «محمد إقْبال» ـ رحمه الله ـ في معنى هذا الحديث أَبْياتاً يهيب بها بأولي الأمر من المسلمين أن يتمرَّسُوا بالشدائد لأنها تشحذ هِمَمَهم، زاجراً إياهم عن النكوص على أعقابهم أمام ما يَعْترِضُهُم من عُقباتٍ في سبيلهم إلى المنشودِ من غاياتهم وأَهْدافهم. . .، قال:

أُمَّةَ الإيمان يا سُودَ الجلود
مِنْكُمُ أَسْنافُ عِطْر للخلُود
فإلامَ تجهلونَ سَيْركم
وتُوَلُّون سِواكُم أَمْرَكم
ليت شِعري. . . هل تخافُون البلاء
البلاءُ كان للمرءِ الصَّفاء

☆ ☆ ☆

وليس يَنْبغي أن نفهم الدَّعْوةَ إلى تحمُّل مكاره الدُّنيا والصَّبْر على حَدثان الزمان على أنها دعوة إلى الخضوع والإستسلام، والإستكانة. . .، بل أنها حَثٌّ أكيد على

الإنطلاق قُدُماً في تجاوُزِ المصاعب وتحدّي المعاطب، وتلْكَ نزعة الإسلام الحقة التي تصلح بها حال الحياة، وتُفْضي إلى الأفضل، في إيجابيّةٍ تتجافى عن كل معنىً للتخلُّف.

☆ ☆ ☆

وروى ـ أيَضاً ـ «أَبو أَيُّوب» ـ رضي الله عنه ـ قَوْلَهُ ﷺ:

ـ [إنَّه لا يدخُل النار أحد يقُول لا إلٰه إلا الله].

ويروى عَنْه أيضاً قوله ﷺ:

[لا يَزْني الزاني حين يَزني وهُو مؤمن، ولا يشرب الخمر حين يشربُها وهُوَ مؤمن].

وعنه قال:

[قال رسُول الله: مَسْألة واحدة يتعلَّمها المؤمن خَيْر من عبادَةِ أَلْف سنة].

☆ ☆ ☆

يقول «الخوارزْمي» في هذا الصَّدد:

إن خلاصَة التوحيد في ناحية النظر، كما أن أساس الكُفْر والشرك في ناحية التقليد، وتذكر ساعة من صُنْع الله، وتفكُّر لحظةٍ في فِعْل الله، أفضل من عبادة سبعمائة سنة، قيامٌ ليلها وصيامٌ نهارها، لأن النظر يُوصل العبد إلى المعرفة، فيعرف الله تعالى، ومَن عَرَف الله فقد نال الْعِزَّ الأبديّ والسعادة الكليَّة.

فأهَل الدِّين بالنظر يعرفُون حقيقة الدين، ولا يمكن معرفة سبيل النجاة في الهلاك إلاّ بالنظر، عَرَفه من عرفه، وجَهله مَنْ جَهِلَه[1].

☆ ☆ ☆

ورُوى عن الرسُول ﷺ قَوْله:

[مَنْ أراد أن يكْثُر عِلْمه وأَن يَعْظُم حلْمهُ فلْيُجالس غير عشيرتِهِ].

إنها دَعْوةٌ لِلترحال والإسْفار، ومجالسة العلماء، ونشدان الحكمة، وعَدَم التقوْقُعِ في مكانٍ واحد، وَإلا فإنَّ المرءَ يَقْتَاتُ من ذاتِهِ بذاته، ويتآكل ثُمّ يفنى دونَ أَن يَحس بِهِ أَحَد.

إن التَّلاقُح مَدْعاةٌ للإزْهار والإثّمار،
شذىً طيب، ونضوجٌ شَهِيّ.

☆ ☆ ☆

وفيما رواه «أبو أَيُّوب» ـ رضي الله عنه ـ عن رسول الله ﷺ قَوْله:

[مَن آغْتَسَل يَوْم الجمعةِ ومسَّ الطِّيب ـ إن كان عنده ـ ولَبس من أَحْسَنِ ثِيابِهِ، ثُمَّ خَرَجَ حتى يَأْتِي المسجد، فيرْكَع ما بدا لَهُ ولم يُؤْذِ أَحَداً، ثُمَّ أَنْصَتَ حتى يُصَلّي، كان كفّارَةً

---

(١) الخوارزمي (مفيد العلوم ومُبيد الهموم) (ص ٧) (القاهرة ١٩٠٩).

لما بَيْنهما وبَيْنَ الجمعة الأخرى].

وعلى ذكر الطيب تَقول إن الرسول ﷺ كان له سكة يتطيّب منها، والسكة طيب معروف، وكان ﷺ لا يرد الطيب، ويقول:

[طيبُ الرجال ما ظهر ريحُه وخَفِيَ لَوْنه، وطيبُ النساء ما ظهر لَوْنُهُ وخَفِيَ ريحُهُ].

☆ ☆ ☆

وللمرأة أَنْ تتطيَّب بما شاءَت إذا كانت عند زوّجها، أما مرورها على الرجال مع ظُهور رائحة الطيب منها، فَمَنْهِيٌّ عنه[1].

وهذا الحديث متصل بعدَّة حقائق، ففيه صريحُ الدعوة إلى ضرورة التَّنظُّف على أَنَّه مظهر لحياةً منطلقة، ولا شك في وجود صلة التأثير والتأثُّر بين مظهر الإنسان ومَخْبَرِه، والتجاوب الدائم الوثيق بينهما، فَمن نَزّه جسمه عن الشوائب والأدران ولباسَهُ عن الأوساخ والأقذار، نَزّه ـ بالتالي ـ تفكيره عن كلّ ذلك؛ إذ إن للواقع المحسوس صداهُ في الروح والفِكْر...

وسُطُوعُ شذى الطيب دافِعٌ عن النَّفْس الفُتُّور، مُغْرٍ

(١) المناوي (جمع الوسائل في شَرْح الشمائل) (ص: ٣، ٤، ٥) (ج ٢) القاهرة: ١٣١٧.

بالإقبال على العمل، مُنَشِّط لها، ولقد أراد «عليه الصلاة والسلام» لأُمَّتِهِ أَنْ تَكُونَ أُمَّةً صاحيةً واعيةً مُتَمَيِّزة، ظاهِراً وباطناً، ولا تَنْسى في هذا المجال قَوْله الشريف:

- [كُونُوا في النّاسِ كأنكُم شامة].

☆ ☆ ☆

وما أراد بالطّيب أن يكون مجرَّد ومظهر للتنعُّم الداعي إلى التراخي والتكاسُل والتَّرفُّه، ولا سبَباً لِلْفِتْنَةِ وما تُفْضي إليْه، بدليل أنه ـ ﷺ فَرَّق بَيْنَ تعطُّر الرَّجُل والمْرأَةِ، وَكَرِهَ لها أَنْ يكُونَ عِطْرُها باعثاً وحافِزاً للرجال أَنْ يقعوا في المحظور، ويتورَّطُوا فيما حرَّم الله عليهم.

☆ ☆ ☆

وعن «أبي أَيُّوب» ـ رضي الله عنه ـ قوْله «عليه الصلاة والسلام»:

[حَبّذا المتخلِّلُون من أُمَّتي في الوضوء والطعام]

أما تخليل الوضوء فالمضمضة والإستنشاق وَغَسْل ما بَيْن الأصابع، وأما تخليل الطَّعام فَمِنْ بقاياهُ بَيْن الأسْنان.

[وليس شيْء أَشَد على الملَكَيْن من أَنْ يريا بَيْن أسنان صاحبهما طعاماً وهُو قَائم يُصَلّي].

كما ذكر ـ رضي الله عنه ـ:

[أَنَّ النبيَّ ﷺ كان يَسْناك من اللَّيْلِ مراراً].

وروى «أبو أيُّوب» ـ رضي الله عنه ـ قَوْلَ رسُول الله ﷺ:
[من كُنْتُ موْلاهُ فـ «عليٌّ» موْلاه، اللَّهُمَّ والِ مَنْ والاهُ، وعادِ مَنْ عاداه].

وهذا الحديث مشهور واسع الشُّهرة عند الشيعة خُصُوصاً، وقد وَرَدَ في ثمانين رواية. والخبر في ذلك: [أن النبيَّ ﷺ كان في «غدير خُمّ» والحرَّ جدُّ شديد، بحيّث لو وُضِع اللَّحم على الرَّمْضاء[1] لشُوي، وأَمَر بآجتماع الناس، فعملوا له من الأَحجار، وقيل من أَقْتابِ الإبل، مِنْبَراً، وقام فيهم خطيباً، فعَدَّد نِعَمَ الرحمن على العباد، ثم استجْوبَهُم فآعْتَرفُوا له بالولاية، وقال: أيها الناس، أَلَسْتُ أوْلى بكم من أَنْفُسِكُم[2]؟ قالُوا: بلى يا رسُول الله، فقال: مَنْ كُنْتُ موْلاهُ فـ «عليٌّ» موْلاه، اللَّهُم والِ مَنْ والاهُ، وعادِ مَنْ عاداه، وآنْصُر مَنْ نَصَرَهُ وَآخْذُل مَنْ خذله].

وجاءَ في نقْض الروايات قَوْل «عُمر بن الخطّاب»: بَخٍ بَخٍ لَكَ يا «علي» أَصْبَحْتَ موْلاي ومولى كُلّ مؤمنٍ ومؤمنة[3].

---

(١) الرمْضاء: شِدّة الحر، أو الحجارة تتلهَّبُ تحْت وَهَج الشمس.

(٢) إشارة إلى قوله تعالى: ﴿النبيُّ أوْلى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجُهُ أُمّهاتُهُم﴾.

(٣) السيد: هاشم معروف، عقيدة الشيعة الإماميَّة (ص: ١٨، ٣٣، ٣٤) (بيروت ١٩٥٦).

وتمسَّك بخلافة «عَليّ» جميع «بني هاشم»، و «الزُّبَيْر بن العوّام» و «المِقْداد بن عمرو» و «سلْمان الفارسيّ» وَبالـطَّبْع راوي الحديث «أبو أَيُّوب» الأنصاري ـ رضي الله عنه ـ.

ويقول في ذلك «حسّان بن ثابتٍ»:

يُنـاديهم يَـوْم الغـديـر نبيهـم
بخُمّ، وأَسْمِـع بـالنبيّ مُنـاديـا
وقـال: فَمَن مـوْلاكم وولِيُّـكم؟
فقـالُوا ولم يُبـدوا هُناك التَّعـاميـا
إلٰـهـك مـوْلانـا وأَنْتَ وَلِـيُّـنـا
ومـالَك مِنّـا في الـولايـة عـاصيـا
فقـال لَـهُ: قُمْ يـا «عليُّ» فـإنّني
رضيتُـكَ من بَعْدي إمـاماً وَهـاديا

وروى ـ أَيْضاً ـ عن الرسُول ﷺ قَوْله في النَّهْي عن الطَّعْن على مَنْ يَتَكلَّم بالفارسيّة: [لا تُعَيِّره بالفارسيَّة، فَلَوْ أَنَّ الدِّين مُعلَّق بالثّريّا لسنا لَهُ أَبْناءُ فارس].

وَنَحْن وإن كُنا نَجْهل الذي وَجَّه النبيُّ ﷺ إليه الخطاب، على وَجْه التحقيق، فإنا مُوقنون بأَنَّه كفٌّ للتعيير والثَّلب عن الصحـابي الجليل «سلْمـان الفـارسيّ» ـ رضي الله عنـه ـ، بدليل قوْل المفسّرين في تفسيـر قوْلـه سبحانـه ـ في سورة المائدة ـ:

﴿يا أَيُّها الَّذين آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكم عن دينهِ فَسَوْف يأتي الله بقـوْم يُحبُّهُم ويَحِبُّونَـهُ أَذِلَّـةٍ على المؤمنين أَعـزَّةٍ على الكافرين يجاهدُونَ في سبيل الله ولا يَخْشَوْنَ لوْمة لائم﴾.

إن النبيَّ ﷺ ضَـرَب على عاتق «سلْمـان» وقـال: هـذا وذوُوه...، لَوْ كان الإيمان مُعَلَّقاً بالثُّريّا لسنا لَهْ رجالٌ من أَبْناء فارس.

هذا ما يقوله النَّسفي في تفسيره، وقد أَوْرَدَهُ «ابن خلدون» في مقدَّمته على نحْوٍ آخر، فهو يقول: إنَّ حَمَلَة الْعِلْم في الإسْلام أَكْثَرُهم الْعَجَم.

وَمصْداق ذلك قَوْله «عليه الصلاة والسَّلام».

[لـوْ تَعَلَّق الْعِلْم بأكْنـافِ السّماء لسنـا لَهُ قـوْم من أَهْـل فارس][1].

☆ ☆ ☆

وكان لِـ «سلْمان الفارسي» ـ رضي الله عنه ـ عند النبيِّ ﷺ منزلة عالية، وحَسْبنا في الإشارَةِ إلَيْها أَنْ نذكر قَوْله ﷺ.

ـ [سلْمانُ مِنّا آل البيْت].

فـ «سلْمـان» من الفُرْس، غَيْـر أن النبيَّ ﷺ قال عَنْـه ذلك بالمتابعةِ تَعْليماً[2].

---

(١) مقدمة ابن خلدون (ص ٤٨١) (القاهرة ١٩٣٠).

(٢) (تـاج العـروس) (ابن عـطاء الله السكنـدري) (ص ٤) (القـاهـرة ـ ١٣٥٣ هـ).

وما وَرَد في هذا الحديث عن فارسيَّةِ «سلْمان» تأييد لما رَوى عن «المبرّد» من قوله: إن «سلْمان» كان يرتضخ لكْنَةً أَعْجَميَّةً فارسيَّة؛ أيْ أنه كان ينزع في لَفْظِهِ إلى الفُرْس ولا يستمر كلامُهُ على العربيَّةِ آستمراراً[1].

وهذا خبر يتعلَّق بما نَحن بِصَدَدِ الكلام عَنْهُ، نَسوقُه لما يُدرك من دلالته.

فلمّا قدِم «سلْمانُ» ـ رضي الله عنه ـ على النبيِّ ﷺ، أَوَّلَ ما قَدِم، قام بالترجمة بَيْنهما يهوديٌّ يَعْرِف العربيَّة والفارسيَّة جيمعاً، وقد حَرَّف المترجم كلام «سلْمان» حين مَدَح النبيَّ ﷺ وقال إنَّه ذمَّه، وهَبَطَ «جبريل» ـ عليه السلام ـ فَأَصْلَحَ ما أَفَسَدَ اليهوديُّ من كلام «سلْمان»؛ وعلَّم النبيَّ ﷺ «الفارسيَّة، و«سلْمانَ» العربية، وما رأى ذلك اليهوديُّ حتى نَطَقَ بالشهادة[2].

وتتمَّة القوْل عن هذا ما رواهُ بعضُهم قائلاً: إنَّ النبيَّ ﷺ تَكَلَّم الفارسية، وهذا خلْطٌ ووهْم، وحقيقة الأمْر أنّها بِضْعةُ أَلْفاظٍ تَسرَّبَتْ إلى العربيَّةِ عن الفارسية، ولا تَنْهضُ دليلاً على أنّه ﷺ كان يتكلَّم الفارسيَّة بالمعنى الذي يُدْرك مِنْهُ التكلُّم بها.

☆ ☆ ☆

---

(١) (البصائر والذخائر) (أبو حيَّان التوحيدي) (ص:١٩٢) (القاهرة ١٩٥٣).

(٢) (جامي) ـ (شواهد النبوّة) (ص: ٦٧) (بومباي) ـ الهند ـ

وَمِمَّا رواهُ «أبو أَيُّوبٍ» ـ رضي الله عنه ـ عن رسول الله ﷺ قَوْلَهُ:

ـ [لا يَحِلُّ الكذِبُ إلّا في ثلاثةٍ: «الرُّجُل يكذبُ آمرأتَهُ يُرْضيها، والرَّجل يَمْشِي بَيْن الرجّلَيْنِ يُصَلِحُ بَيْنهما، والحرْبُ خُدْعة].

ونحن نحمل الكذِب ـ هنا ـ على غير ظاهِرِه، ونفهم أَنَّه سمَى الكذب تجوُّزاً لأنَّه مخالِف لواقِعِ الأَمْر، أو كما يُقال: كَذَبَ في القتال، إذا لم يُوَفِّه حَقَّه.

ومـا دامت المضـرَّةُ لم تلْحق بمن يُلْقى إليـه الخبـر المكذوب، فقد آنْتفى الشّـر عن هذا الخبـر وفَقَد عُنْصُـره المقوّم له الذي تَجْعَلُ منه رذيلةً تُسْتَشْنَعُ وتُسْتَبْشع.

☆ ☆ ☆

وعن «أبي أَيُّوبٍ» ـ رضي الله عنه ـ أَيْضاً ـ عن النبيِّ ﷺ:

[ما مِنْ رجُل يَغْرِس غَرْساً إلّا كتب الله لهُ من الأَجْر قدر ما يخرجُ من ثَمَرِ ذلك الغرْس].

ومن الصَّريح في نفس هذا الحديث أَنَّ الإسـلام يَدْعُـو الإنسانُ إلى العمل الـذي يَعُود بـالخيْر والنَّفْـع عليْه وعلى أخيه، والله ـ تعالى ـ يُحْسِنُ المثوبَةَ للعاملين الَّذين يلقـون الحبَّة في باطن الأرض، لِتُصْبح من بَعْدُ غذاءً وثَمَراً، وأكلاً طيباً، وظِلاً ظليلاً؛ وإن لم يَأْكُل منها الإنسانُ في حياتِهِ.

وهذا هُوَ التعاوُن الإنسانيُّ الحقّ، الذي يَسْمو بـه معنى الإنسـانية، وهو تعاوُنٌ على الخيرْ بالمفْهومِ العام.

ويؤيّده حديث آخر جـاءَ فيه قَوْله ﷺ:

الله في عوْنِ العبْد ما دام العبْد في عوْنِ أخيه]

وهذه الأُخُوَّةَ الإنسانيَّة تَتّخذ مَظهراً خالِصاً في الوُدِّ، فِي حديثٍ آخر يرويه «أبو أَيُّوبٍ» - أيْضاً، وهُوَ قوله ﷺ:

- [لا يَحِلُّ لامرىءٍ مُسْلِم يُؤمِنُ بالله واليوْم الآخر أَنْ يهجُرَ أخاهُ فَوْق ثلاث ليالٍ، يلْتقيـان بَعْدهـا، فَيَصُدُّ هـذا ويَصُدُّ هذا، وخَيْرُهما الذي يَبْدأ بالسلام].

☆ ☆ ☆

ونَكْتفي بهذا القدْر ممّا أَوْرَدْناهُ من روايـة «أبي أَيُّوب» - رضي الله عنه - عن رسُول الله ﷺ، كنمـاذج وأَمْثلةٍ، . مع توافر غَيْرها وكثرتِهِ، ولقد حاوَلْنا بما أُوتينا من فضل الله تعالى أَنْ نـرْبط بيْنهـا في مضـامينهـا وحقـائقهـا، وبيْن الحقـائق الإنسانيَّة، والله - سبحانه - الهادي إلى سواء السبيل.

☆ ☆ ☆

الْمُجَاهِدُ

ـ رضي الله عنه ـ

لا بُـدَّ لنا ونَحْن في مُسْتهـل الحديث عن «أبي أيُّـوب» المجـاهد أَنْ نَعْـرض لـطرف من آيـاتِ الجهـاد ومعـانيهـا وأغراضها، ونرى التلبُّس الذي عـاشَهُ الصحـابيُّ الجليل، ونَـذَرَ نَفْسَهُ لـه، حتى انتهى بِـهِ الأَمْـر ثـاويـاً عنـد أَسْـوار «القسطنطينية» ـ إسْتانبول ـ.

ونحن ـ بإذن الله ـ واجدون من ذلك الكثير، ممـا يُقيم الدليل على أَنَّ الجهاد فريضةٌ من فرائض الـدين الحنيف، ويتضمَّن القرآن الكريم ـ تصريحاً وتلْميحاً ـ إلى مالا يحتمل شكاً في أَنَّ المؤمنين مأْمورون بِهِ شَرْعاً، مَدْعُوّون إليه حتْماً، بدافعٍ هُـو دافعهم إلى المحافـظة على كيانهم وكفّ بـأْس أَعدائهم، ونَشَر راية الإسلام والتبشيرِ بِهِ في أقطار الأرض.

يقول الحق ـ سبحانه ـ في سورة «البقرة»:

﴿كُتب عليْكم الْقِتالُ وهُوَ كُرْهٌ لكم وعسى أَن تكْرهُوا شيْئاً

وهُوَ خَيْرٌ لكم وعسىٰ أَنْ تُحِبُّوا شيْئاً وهُو شَرٌّ لكُم واللهُ يعلم وأَنْتُم لا تَعْلَمُون﴾[1].

وقال في سورة «التَّوْبة»:

﴿إنْفِروا خِفافاً وَثِقالاً وجاهِدُوا بأَمْوالِكُم وأَنْفسكم في سبيل الله﴾[2].

وجاء في السورة نَفْسها قوله عَزَّ وَجَلَّ:

﴿إنَّ الله آشْتَرى من المؤمنين أَنْفُسَهُم وَأَمْوالهم بأَنَّ لهم الجنَّة يُقَاتِلُونَ في سَبيل الله فَيَقْتُلُونَ ويُقْتَلُونَ وَعْداً عَلَيْه حقاً في التَّوْراةِ والإنجيل والقُرآن ومَنْ أَوْفى بِعَهْدِهِ مِنَ الله فأَسْتَبْشِروا بِبَيْعِكُم الَّذي بايَعْتُم بِه وذلك هُو الفَوْز العظيم﴾[3].

وجاء في سورة «النساء»:

﴿لا يَسْتوي القاعِدونَ من المؤمنين غير أُولي الضَّرر والمجاهدُون في سبيل الله بأَمْوالهم. وأَنْفُسهم فَضَّل الله الماجهدين بأموالهم وأَنْفسهم على القاعدين دَرَجة وكلاًّ وَعَدَ اللهُ الحُسْنى وَفَضَّل الله المجاهدين على القاعدين أَجْراً عظيماً درجات منه ومغْفِرةَ وَرَحْمة وكان اللهُ غفوراً رحيماً﴾[4].

---

(١) سورة (البقرة): الآية (٢١٦).

(٢) سورة (التوبة): الآية (٤١).

(٣) سورة (التوبة): الآية (١١١).

(٤) سورة (النساء): الآية (٩٥).

وفي سورة (الصَّف) قال الله تعالى)

﴿يا أَيُّها الذين آمَنُوا هَلْ أَدُلّكم على تجارةٍ تُنجيكُم من عذابٍ أَليم تؤمنون بالله ورسُولِهِ وتُجاهِدُونَ في سبيل الله بأموالكم وأَنْفسكم ذلكم خيرٌ لكم إن كُنْتم تعْلمُون يغفر لكم ذنوبكم ويُدْخِلْكُم جنّات تجري من تحْتها الأنهار ومساكن طيّبة في جنّات عَدْنٍ ذلك الفوْز العظيم وأُخرى تُحِبُّونها نَصْر من الله وفَتْح قريبٌ وبَشِّر المؤمنين﴾[1].

وبتأمل هذه الآيات البيّنات يتبين من منطوقها أَنَّ الله تعالى قد رغّب المؤمنين بالجهادِ وحثَّهُم عليه وحَفَزَهم إليه وزيَّنَهُ لهم، وبَصَّر من صرفهم ظاهره عن تأمُّل باطنه بأنّه خَيْرٌ لهم؛

وسُبْحانه يَدعُو إلى الجهاد بأعَزّ ما يملك الإنسان، وهُما: نَفْسه ومَالَهُ؛ كما ذكَّرهم بأَنَّه يبلغ بهم الجنَّة وأَنَّها الفوْز العظيم، كما يبيّن كَيْف أن المجاهد أحبّ إلى الله وأَكرَم عنده من القاعد، ولهُ الأجْر الجميل وحُسْن الجزاء.

والقرآن الكريم بإعجازه البلاغيّ يَرْمَي في تمثيل المعنويّات بالمحسوسات وَلْنَنْظُر إلى تشبيه الثواب والنجاةِ من العذاب بالتجارة، وجَعْل هذا الثواب على الجهاد في سبيل الله بَعْد الإيمان بِرَبّ العالمين وسيِّد المرْسلين.

وهذه المرْتبة الفضلى للجهاد، وجَعْلها منزلة بَيْن الإيمان

---

(١) سورة (الصف): الآيات (١٠).

بالله ورسُولِـهِ، تذكَّـرنا بجُملةٍ من الأحـاديث الشريفـة التي وَرَدَتْ في الجهاد.

فَعَنْ «أبي هُرَيْرَة» ـ رضي الله عنه ـ قال:

ـ [سُئِلَ رسُول الله ﷺ: «أيُّ الْعَمَل أفْضَل؟ قال: إيمانٌ بالله ورسُولِهِ. قيل: ثمَّ ماذا؟ قال: الجهادُ في سبيل الله. قيل: ثُمَّ ماذا؟ قال: حَجٌّ مَبْرور].

فالجهادُ في الْفَضْلِ قبل الحج، مع أَنَّه رُكنْ من أركان الأسلام الخمسة.

وعن «أبي ذَرّ الغفاري» ـ رضي الله عنه ـ قال:

ـ [قُلْتُ: يا رسُول الله أيُّ الْعَمَلِ أفْضَل؟ قال: الإيمان بالله والجهاد في سبيلِهِ].

وهذا الحديث يجري مجرى الحديث السابق وإن لم يذكر الإيمان برسُوله ﷺ، على أن الإيمان بالرسُول ـ عليه الصلاة والسلام ـ يُفهم ضِمْناً، فكُل مؤمنٍ بالله من المسلمين مؤمن برسُولِهِ.

جاءَ في كتاب: «الجهاد في الإسلام» لـ «محمد إسماعيل إبراهيم»[1].

(قـال «صلواتُ الله وسلامُـهُ عليه»: بُنيَ الإسـلام على

(١) (ص: ٣، ٤) القاهرة ١٩٦٤.

خمس: شهـادة أن لا إله إلّا الله وأَنَّ محمـداً رسُـول الله، وإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، والصوْم، والحج لِمَن استطاع إليْه سبيلا).

ولم يذكُر الجهاد رُكْناً من أركانِ الإسلام في هذا الحديث الشريف، غير أن الكُتُب التي تجمـع الأحـاديث النبـويَّـة الشريفة، ذكَـرَتْ عظيم فَضْـل الجهاد، بحيْث يُعَـدّ الركن السادس بعد تلْك الأركان.

☆ ☆ ☆

وعن «أبي سعيد الخُدْري» ـ رضي الله عنه ـ قال:

[أَتى رجُلٌ رسُولَ الله ﷺ فقال: أيُّ الناس أَفَضَل؟ قال: مُؤْمِنَ يُجاهد بنفسه ومالِهِ في سبيل الله. قال: ثُمَّ مَنْ؟ قال: ثُمَّ مؤمن في شِعْبٌ من الشعاب يعْبد الله ويَـدَع الناس من شَرِّه][1].

فَقَطْعِيُّ الثبوت أَنَّه ﷺ يؤثر المجاهد على العابد المتبتِّل الذي يحسب أن انقطاعه للعبادةِ وكفّه الشّر عن النـاس مِمَا يرفعه على المؤمنين درجات.

ولم يُؤمر ﷺ بالجهاد: إلّا بعد أن تمادى المشركُونَ في إنزال الأَذى بِهِ وَبِأَصْحابِهِ.

---

(١) ريـاض الصـالحين (الإمـام النـووي) (ص ٤٥٩، ٤٦٠)، (القـاهـرة ١٩٣٩).

مثالُ ذلك ما يُروى أَن قريشاً أَلْقوا عليه الْقَذَر وهو يُصَلّي، فمضى إلى «أبي طالبٍ» وقال: يا عَمّ كيف حَسبيَ فيكمُ؟ فَرَدَّ عليه سائلاً: وما ذاك يا آبْن أخي؟

ولمّا أَطلعه النبيُّ ﷺ على جليَّةِ الأمْر تغضَّب وتَسَخّط، وطلب إلى «حمزة» أَنْ يحمل سَيْفَهُ، وآنْطلقا إلى حَيْث يجتمع القرشيون عند فناءِ الكعبة.

ثم أَمَر «حَمْزَة» أَنْ يُلَوِّث شواربهم بما أَلْقَوا على النبيِّ ﷺ من قَذَرٍ، ويقْتل كلّ من قاوَمَهُ منهم، وكان ما أراد، وما تحرَّك أحدٌ من مجلسه.

والتفت «أبو طالبٍ» إلى النبيّ ﷺ قائلا: هذا حَسَبُك، مِنّا وفينا.

☆ ☆ ☆

وكم من مرَّةٍ كان يأتيه فيها أَصْحابُهُ ﷺ «شاكين، بين مضروبٍ ومشْجوج يتظلَّمونَ إليه، فيقول لهم:

- إصْبروا فإنّي لم أُؤمر بِالقتال بَعْدُ.

☆ ☆ ☆

وبعد الهجرة إلى «المدينة» نزل قوْل الله تعالى:

﴿أُذِن للذين يقاتِلُون بأنَّهُم ظُلِمُوا وإن الله على نَصْرِهم لقدير الذين أُخْرِجُوا من ديارهم بِغَيْر حقّ إلاّ أن يقولُوا ربُّنا الله...﴾ الآية.

فكانت الآية الأولى بإعلان الجهاد دفاعاً عن الظُّلْم الذي أحاق بالمسلمين، وذلك بعد أن نهى الله تعالى عنه من قَبْل في نيّفٍ وسبعين آية.

وما هو واضح من الإستقراء التاريخي أَنَّ مفهوم الجهاد قد أشكل على الكثيرين، فتوهَّمُوا أن المسلمين قد حاربُوا الكفار لإكراههم على اعتناق الإسلام، وسبب ذلك أن هؤلاء أخذوا بظاهر النصوص دُونَ أن ينظروا إلى تفسيرها وحقائقها، أَما ايات الجهاد فإنها نـزلَتْ حين هدّد الكفـار كيان المسلمين ورفضُوا الصُّلْحَ والسلام.

☆ ☆ ☆

ولنعُد إلى «أبي أيُّوب» ـ رضي الله عنه ـ فقد كانَتْ غزوة «بَدْر» أولى مشاهِدِه مع رسُول الله ﷺ، وأَهْل «بَدْرٍ» لهم من سمُوّ المنزلة عند الله تعالى فوْق ما للغزاةِ والمجاهدين جميعاً إلى يَوْم الدين، وهم المعروفون بـ «الأبْرار».

ولقد قال سيدنا رسُول الله ﷺ:

ـ لعل الله أطلع على أَهْل «بَدْرٍ» فقال لهم آعْملوا ما شئتم فقد غَفَرْتُ لكم.

كما قال لهم أيضاً: فقد وجَبَتْ لكم الجنّة.

ولقد أَبْلى «أبو أَيُّوب» ـ رضي الله عنه ـ يَوْم «بَدْر» أَحْسَنَ البلاء؛ كما أَنَّه كان من التائبين يَوْم «أُحْدٍ» إلى جانب رسُول الله ﷺ، وهم فئة قليلة.

أَمَا في غزوةِ «خَيْبر» فيحدِّثْنا التـاريخ بـأنَّه ـ رضي الله عنـه ـ بات يَحْـرُس خَيْمة رسُـولِ الله ﷺ التي بنى فيها بـ «صفيَّـة بنت حُيَيّ بن أَحْطَب»، ولقـد أَحَسَّ «عليه الصـلاة والسلام» بحركةٍ خارج الخيْمـة، فأطّلع فـرأى «أبا أيُّـوب» يطيف بالخمية، وحين سأَلَهُ ﷺ عمّا يَفْعل، أجابَهُ ـ رضي الله عنه ـ بأَنَّه يحرسُه خشيةً عليه من «صفيَّة» التي كانَتْ حديثة عهْدٍ بإسلام، فتبسَّم ﷺ ودعا لَهُ بخيْر.

☆ ☆ ☆

وجاءَ في «البداية والنهاية» لـ «ابْن كثير»[1]:

وبعد أن شهدَ (أبو أَيُّوب ـ رضي الله عنه) بَدْراً والعقبة، والمشـاهِدَ كُلّهـا، شهدَ مـع «عليّ» قتال الحـروريَّة، وهم الخـوارج المنسوبُـون إلى «حروراء»، وهي قَـرْيـة بـظاهـر الكوفة، نزلُوا بها بعد أن انشقُّوا عن «عليّ» ـ كرَّم الله وجهه ـ، وقد بُويع ـ رضي الله عنه ـ بالخلافة الغدِ من مقْتل «عثمان» بالمدينة، وبايعه كُلّ من كان بها من الصحابة. قيل: وبايعه «طَلْحَـةُ» و «الزُّبَيْـر» على كُرْهٍ منهمـا، وحـاربـاهُ في وقْعـةِ «الجمل»، إلاَّ أنهما قُتِلا[2].

وانصرف «عليٌّ» إلى «الكوفة»، ثم خَرَج عليه «معاوية»

(١) (ص ٥٨) (ج١) (بيروت: ١٩٦٦).

(٢) تاريخ الخلفاء لـ «السيوطي» (ص ١٧١) (القاهرة ١٩٥٢).

والتقى به بـ «صِفّين»؛ وكان ما كان من خـدعة «عمـرو بن العـاص» ومكيدتِـهِ، وتداعى النـاس إلى الصُّلْح والتحكيم الذي كان غَدْراً أفضى إلى تسليم أهل الشـام لِـ «معاويـة» بالخلافة.

أمّا رجالُ «عَلِيّ» الذين كانوا قد أشاروا بالتحكيم وألْزموهُ بِهِ، فندموا عليه وقالوا لِـ «عليّ»: لا حُكْم إلا الله؛ ووعظهم «عليّ» ـ كرَّم الله وجهه ـ وبَصَّرَهم بالحق، إلاّ أنهم نـابذوه وخرَجُوا عليه، وصدرت منهم أُمُورٌ تَدلُّ على أنَّهم يخبطون خبْط عشواء.

مفاد ذلك أَنَّ رجُلاً وضع في فيه رطْبةً سقطت من نَخْلةٍ، فقالوا له: أَكلْتها غصْباً، وأخذتها دُونَ أن تَدْفَعَ لها ثمناً.

وعَفَر أَحَدُهم خنزيراً بسيْفِـهِ، فقالُـوا له: هـذا فسادٌ في الأرض. كما قَتلُوا النفس التي حـرم الله إلاّ بالحق.

ورَغِبَ إليه ـ كَرَّم الله وجهه ـ أشياعه وأتباعـه أن يُقاتـل الخوارج قَبْل أن يُقاتِلُوا أَهْل الشـام أعداءهم، فخرج إلَيْهم ولقيهم في «النَّهْـروان» فأبـادَهم، وكأنمـا قيل لهم: مُـوتُوا فماتوا[1].

ولَما عَبَّأ «عليٌّ» أصحابَهُ، جَعَلَ على الخَيْلِ «أبـا أَيُّوب الأنصاريّ»، وهُو يَحْمل راية أمانٍ، فناداهُم «أبو أيُّوب»:

---

(١) ابن طباطبا: الفخري. (ص ٦٩) (القاهرة ١٩٢٧).

ـ من جاءَ منكم إلى هذه الراية فهو آمن، ومَنْ دَخَلَ المِصْر فهـو آمن، ومن آنْصرف إلى العـراق ومن خَـرَج من هـذه الجماعة فهو آمن، فإنه لا حاجة لنا في سَفْك دمائكم.

ولكنهم شدُّوا على أصحاب «عليّ» شَـدَّة رجُلٍ واحـد، حتى صَرَعَهم الله[1].

☆ ☆ ☆

فأَبو أَيُّوب في حرْبه مع «عليّ» ـ رضي الله عنهما ـ يُجاهد من خرجوا على الدين، فلمّا ركب الخوارج الشطط، وشرطوا في العوْدةِ إلى طاعته أن يَعْترف بكُفْرِه في قبُول التحكيم، قال لهم ما نَصُّهُ:

ـ أصابكم حاصب، ولا بقي منكم آبر؛ أبَعْد إيماني بالله وجهـادي مع رسُـول الله أشـهد على نَفْسي بـالكُفْر؟ لقـد ضَلَلْتُ إذاً وما أنا من المهتدين، فأُوبُوا شَرَّ مآب، وآرْجِعُوا على آثَرِ الأعْقاب، أما إنكم ستلقون بَعْدي ذُلاًّ شاملاً وسيْفاً قاطعاً، وأَثَرَةً يتخذها الظالمون فيكُم سُنَّة[2].

وقال ؛ كرَّم الله وَجْهَهُ ـ في قوْلهم: لا حُكْم إلا لله...، إنها: كلمةُ حقّ يُرادُ بها باطل.

وقد لجأت فُلُولٌ منهم إلى «الْبَحْريْن» و «الأحْساء» حيث

---

(١) (ابن قُتيْبة) (الإمامة والسياسة) (ص ١٢٤) (ج١) القاهرة.

(٢) نهج البلادة (ص ١١٥، ١١٦) ـ (ج١) القاهرة.

كانت نواة جماعةً من المتعصّبين طالما زعزعت صَفْوَ الدَّوْلة بغاراتها، كما أن ثورات الخوارج كانت ممّا تأذّت بِهِ الدولة طوال القرون الثلاثة الأولى للهجرة، ودفقَتْ أمْواجاً من الدّماء[1].

وقيل: «إن أبا أيّوبٍ» ـ الأنصاري ـ، في يوْم «النهْروان» علا رَجُلاً من الخوارج يُقال لهُ: «عبد الله الراسبيّ» فَضَربَهُ بسْيفِهِ ضَرْبةً أبانَتْ يده، وقال: بُؤْ بها إلى النارِ يا مارق، فَرَدَّ عليه الرجُل بقوْله: سَتَعْلم أيّنا أوْلى بها صليّاً.

ثُمّ أقْبَلَ مَنْ يُدْعى: «صَعْصَعة بن صُوحان» فقال: أوْلى بها ـ والله ـ صِليّاً مَنْ ضَلَّ في الدُّنيا عميّاً وصار في الآخرة شقيّا.. ، أبْعَدَكَ الله وأتْرحَك، ذُق يا مارق وبالَ أمْرِك.

وشَرَكَ «أبا أيّوبَ» في قَتْلِهِ فضربه بالسَّيْف فأبانَ رِجْلَهُ وطَعَنَهُ في بَطْنِهِ وقال: لقد صِرْتَ إلى نارٍ لا تَطْفأ ولا يخبو سعيرها، ثُمَّ آحتزّا رأْسَهُ، وأتيا به «عليّاً» فقالا: هـذا رأسُ الفاسق الناكث المارق[2].

☆ ☆ ☆

وما كان «أبو أيّوب» أميراً من أُمراءِ جَيْش «عليّ» فقط، بل

(1) Ameer Ali: Ashort History of the soracens. P. 51 London: 1949.
(أمير علي: مختصر تاريخ الخوارج).

(2) (مروج الذهب) لـ «المسعودي» (ص: ٨٢) (ج٢) (القاهرة: ١٣٤٦ هـ).

استخْلَفَهُ على «المدينة» لَمّا خَرَجَ إلى «العراق» ثم لحق بِهِ من بَعْد؛ وتلْك منزلة عالية يسْمو إليها، فهو مختصٌ بـ «عليّ» أثيرٌ لديْه رفيع الْقَدْر، ومن رجالِهِ الذين يَـأْمَنُهُم على وديعة الولاية في الوقْتِ العصيب.

وبذلك يجتمع لـ «أبي أَيُّوب» شَرَف الصُّحْبة والإستضافة وشهود المشاهِدِ كلها مع رسُول الله ﷺ، والإتصال الوثيق في السلْم والحرْب بـ «عليّ» ـ كرَّم الله وجهه ـ ، ولا شَكَّ أن هذا كُلّه في عداد مناقبه ومأثور محامِدِه.

☆ ☆ ☆

ولكنه ـ رضي الله عنه ـ بالإضافة إلى ما تَقَدَّم ـ يُطلعنا منه على صورة له أخرى، هي صورة المجاهد الذي يُزايلُ أَرْضَهُ العربيَّة ليخرج فاتحاً في سبيل الله مُغَيِّراً معالم التاريخ بإيمانِهِ وسِنانِهِ في وقْتٍ معاً.

فقد شَهِدَ فَتْح «مِصْر» ـ كما ذكر صاحبُ «النُجُوم الزاهرة»[1]، وهُوَ من شَهِدَ فَتْحها.

وكان «عُمر بن الخطاب» ـ رضي الله عنه ـ يُشْفق من فَتْح مِصْر بعد أن تَوزَّعت جُيوش المسلمين في الشام وفارس والجزيرة، غير أن أَسباباً شهدَت لذلك الفتح ورغَّبت فيه،

---

(١) (ابن تغري برْدي): (النجوم الزاهرة) (ص: ٢١) (ج: ١) القاهرة: ١٩٣٠).

فقد كان «عمرو بن العاص» في الجاهلية يختلف إلى مِصْر تاجراً، يبيع الطِّيب والأدم، واتَّفق له في زوْرةٍ له أن وافى مدينة «الإسكندرية» والقوْم في عِيدٍ لهم يترامُون بكُرَةٍ، ومن المتعارف عليه عندهم أن مَنْ وقعت في حِجْرِه مَلَكَ الإسكندرية، أو مَلَكَ مِصْر؛ وبيْنما «عمرو» بيْن المشاهدين إذ سقطت الكُرَةُ في حِجْرِهِ، فعجبَ القوْم قائلين: ما كذبَتْنا هذه الكُرَةُ إلّا هذه المرَّة، وأنّى لهذا الأعْرابي أن يمْلك الإسكندريَّة!!! هذه والله لَنْ يكون!!!

ودارت الأيّام، وفَتَح المسلمونَ الشام، فآستأْذَنَ «عمرو» «عُمرَ بن الخطاب» في فَتْح مِصْر، وقال إنَّه عالم بها وَبِطُرُقها، وهي أَقَلُّ شيْءٍ مَنَعَةً وأكثر أموالاً.

وقيل: إنه مضى إلى مصْر دون أن يَسْتأذن في المُضيِّ إليها، ولَقِي بها جُموعَ الرُّوم فَهَزَمَهُم[1].

كما يُروى عن «كعْب الأحْبار» قوله:

ـ من أراد أن يَنظر إلى شبه الجنَّة فلينْظُر إلى مِصْر إذا أخْرفَتْ.

وقال غيرُهُ:

ـ فَلْيَنْظُر إلى أرض مِصْر إذا أَزْهَرَتْ[2].

(١) وُلاةُ مصر (الكنْدي) (ص: ٢٩، ٣٠، ٣١) (بيروت: ١٩٥٩).

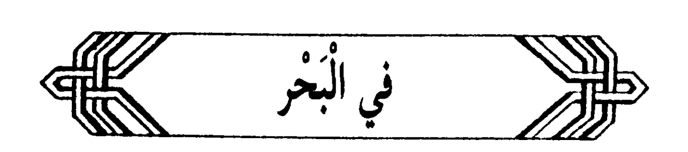
(٢) (فُتُوح مِصر وأخبارها) (ابن عبد الحكم)(ص: ٥) (ليدن: ١٩١٠).

ولا غرْوَ، فقد ساءَتْ حال مِصْر تحْت الحكم الروماني، وكانت في حالٍ أَتْعَس من حالِ الشام، إذْ أَذلَّ الرومان أَهْلها وأضعفُوا شأنهم، وهم الذين كابدوا من هَوْل آضطهاد حُكامهم ما كابَدُوا، فما أفادُوا من ثَرْوةِ بلادِهم ولا حافظوا عليها، فعدموا الرَّخاء[1].

تلْك هي حالُ مِصْر التي يسَّرت على العرب فَتْحها، وهو الْفَتْحْ الإسلامي الذي رفعها من كبْوتها، وأَصْلَحَ شأنها أَيّما إصلاح.



(١) Marcel: Histoire de l'Egypte. P 24 (Paris: 1834).



في الْبَحْر

وليس «أبو أيُّوب» ـ رضي الله عنه ـ بالجُنديّ الذي يطوي الأرْض غازياً وحسْب، بل هُوَ إلى ذلك يركبُ الْبَحْر فاتحاً في أوّل عَهْد العرب والمسلمين بركوبه فاتحين.

وأوّل من غزا في البحر «معاوية بن أبي سُفيان»، وذلك أَنَّه لم يَزل بالخليفة الثالث «عثمان بن عفّان» ـ رضي الله عنه ـ حتى قبلَ ذلك وَعَزم عليه، وكان بما قال له: تنتخب الناس ولا تَقْرع بينم، خيِّرْهُم... فَمَن آخْتار الغَزْو طائعاً فآحْمِلْهُ وأَعِنْهُ؛ فَفَعَلَ[1].

وهذا قاطع الدلالة على أن جُنْد البحر كانُوا خيرة الجند في تقديره، وذلك التقدير مردود إلى أن العرب لم يكن لهم أَلْفٌ بركُوب الْبَحْر والغزْو فيه.

☆ ☆ ☆

كما أنّ «أبا أَيُّـوب» ـ رضي الله عنه ـ خَـرَجَ فاتحـاً إلى

(١) حقائق الأخبار (إسماعيل سرهنك) (ج ٢) (ص ٢٢٠) (بولاق ١٣١٤).

جزيرة «قُبْرص»[1]، وقد أشار صاحِبي (الأخبار الطوال) إلى فَتْح «قُبْرص» إشارة لامحة بقوله:

ـ إن أميرها «معاوية بن أبي سُفْيان». [2]

أما «البلاذريّ» فتجاوز التلميح إلى التصريح قائلاً:

ـ إن «معاوية» غزاها في البحر، ولم يركب المسلمُون بَحْر الروم قَبْلها، وذلك في سنة ثمان وعشرين، (٢٨) هـ؛ وقد صالح أهلُها المسلمين على سَبْعةِ آلافٍ ومائتيْ دينارٍ يُؤدُّونها في كُلِ عام[3].

وأراد «معاوية» أن يُقدِّم إبْنَهُ «يزيد» على الصائفة، وهي غزوة الصَّيْف، وبها سُمِّيتْ غزوة الروم لأنهم كانُوا يغزون صيْفاً، فكرهَ ذلك «يزيدُ» في أوّل الأمْر، ولكن «معاوية» أبى عليه إلّا أَنْ يَفْعَل، فكتب إليه «يزيد» يقول:

نـجـيّ لا يـزال بَـعْـد ذنـب
لِتَقْـطع وَصْـل حَبْلك من حبـالي
فيُـوشـك أَنْ يُـريحـك من إزائي
نـزولي في المهـالـك وآرْتحـالي

ثم تَجهَّز إلى الخروج، ومـا تخلَّف عَنْه أحـد، وكان فيمن

(١) Levi provemçal: The encyclopedia of Islam (London) (1949).

(٢) الدينوري: الأخبار الطوال (ص ١٤٠) (القاهرة: ١٣٣٠).

(٣) البلاذري فتوح البلدان (ص: ١٥٧، ١٥٨)، (القاهرة: ١٩٣٢).

خَرَجَ «أَبُو أَيُّوب الأنصاري» صاحِب النبيّ ﷺ[1].

☆ ☆ ☆

وَعَقَد «معاوية» عَزْمه على فَتْح «القسطنطنية»، وهذا الفتْح مُتصل بأسبابٍ متداخلةٍ في رأي المستشرق البلجيكي الأب: «لامانس»، وتواشجت فيه أحْداثٌ وآعتبارات وملامح بارزة تتّسم بها شخصيّة «معاوية» وآبْنـة «يزيـد»؛ ونحن نرى في أحكامه مواضع للتجريح، وبكلامه حاجة ماسَّة إلى التعصيب والتصويب، وهذا ديدن المستشرقين في دَسِّهم وافْترائهم.

فقد ذكر «لامانس» أن «معاوية» كان يعرف عن إبنه «يزيد» أَنَّه صاحب لهْو وشراب، قبل أن يُصْبح وليّاً للعهد، ويقول إن الشّك يساوره في سخطه على مثل هذا من حالِهِ، لأنه كان يعرف كيْف يُفرّق بيْن سُلُوك الحاكم وسُلُوك الأمير.

ونحن لا نَحْسَبُهُ إلا مُتَظنّناً، لَأنَّه لم يُدْلِ بما يقوم حُجَّةً على ذلك، ولا نَعْرِف من سيرةِ «يزيد» وخُلُقِهِ أَنَّه كان رقيق الدِّين، أَوْ مُتَهافتاً على المجُونِ وبِصَّبْوةٍ؛ النهم إلا ما كان من آفتراءات المَغْرضين.

ثُمّ يقول إنَّ لُمعاً من أخيـار «يزيـد»، في مجالس لَهْـوِهِ كانَتْ تَبْلُغه، وذلك حين كانت الأخبار ترِدُ من بلاد الروم بأن الجيُوش التي كان قد أرسلها لفتح عاصمة الروم تَنْدَحرُ تحْتَ

(١) (العقد الفريد) (ابن عَبْد رَبّه) (ص ١٢٨) (ج٣) (القاهرة ١٩٢٨).

أَسْـوارها، وتفْتِـكُ بها النـارُ الإغريقيّـة، ويُهلكها الـطاعُون والجدريّ، فرأى «معاوية» من الخيرْ أن يرسل آبنه على رأس مَدَدٍ يلْحق بها، وبذلك ينتزعه من حياته الماجنة، ويهيّء له سبيلاً إلى المجْدِ، مِمّا يَنْفعه ويزْكُو بِهِ إذا ما وَقَعَ الخيار له وليّاً لِلْعَهْد.

وهذا من كلامه مناقض لما سَلَفَ، مُؤَيّد لنا في تحفّظنا، ونَحْن نَسْتَبْعد أَنْ يكون «معاوية» راضياً عن «يزيد» وهُو يَخْلَعُ الْعِذار.

وذلك الباحث يعدل رأْيه وهُو يروى من بَعْد قَوْل من قال: وآتّفق مَوْت بنت رسول الله ﷺ وحُصُول مِثل هذه الغزوة لأبْن «معاوية»، فطَمِعَ أبوهُ وقويتْ نفسه على أن يجعله وَليَّ العهْد من بَعْدِه.

ثم يعرض رأي مستشرق آخر في مغازي «بيزنطة»، يذهب إلى أن الْعَرَبَ ساءَهم وأَغْضبَهُم أن يكون للمسيحيَّة الحُكْم والبقـاء إلى جـانب الإسلام، فـأدْركوا مثـاليَّة في محـاربـة الإمبراطور لا تُدانيها مثاليَّة في محاربة غيره من أَعْدائهم، فما كفُّوا قَطْ عن الحرْب، ولقد أَصْبَحَ حُكام «دِمَشْق» شَعْبيين، وفي الوقت ذاته جَيَشُوا جُيوشَهُم[١].

---

(١) Lammens: Etudes sur le Rêgne du calife omaiyade (mo'omior 1er) P 442-446 (Beyrouth 1906).

وهـذا فاسـد في العقـل ظـاهـر البـطلان، فمـا حـارب المسلمون لِيُكرِهُوا أَحَداً على الدُّخُول في دينهم، بدليل قَوْله تعالى:

﴿ولوْ شَاءَ رَبُّك لآمَن من في الأرض كُلُّهم جميعاً أَفأَنْتَ تُكْرِهُ النّاس حَتّى يكُونْوا مؤمنين﴾[1].

لقد فَرَض المسلمون الجزْية على من لم يقبل الإسـلام ديناً، وهذا ما لا غاية بعده في آحْترام حرّيَّة العقيدة.

ويُروى عن «عمر بن الخطاب» - رضي الله عنه - أَنَّه مرَّ على قَوْمٍ أُقِيموا في الشمس، وكانَ ذلك في جهةٍ من أَرْض الشام، فَسَأل عن شَأْنهم، وعرف أَنَّهم من أَهْلِ الذمَة أُقيمُوا في الجزْية، وسأل عمّا يعتذرون به فقالُوا: إنهم يقُولُون: لا نجِد؛ فأَدْرَكَتْهُ الرقة لهم وقال: لا تكلّفُوهم ما لا يُطيقُون، ثُمّ أَمَرَ بهم فَخُلِّي سبيلهم.

ورأى شيْخاً ضريراً يَسْأل، فَسَأَلَهُ من أيّ أَهْلِ الكتابِ هُو؟ فقال إنَّهُ يهوديّ ولجأ إلى السؤال ليؤدّي الجزية على شِـدَّة فَقْرِه، فَأَخذ بيدِهِ إلى منْزِلهِ وأعطاهُ مِمَا وَجَدَه، ثُمَّ أَرْسَلَهُ إلى خازِنِ بيْتِ المال وقال له: أُنْظُر هذا وأمْثالَهُ[2].

---

(١) سورة (يونس): الآية (٩٩).

(٢) (التعصُّب والتسامُح) (محمد الغزالي) (ص: ٤٢، ٤٣) - عن الخزرج لأبي يوسف.

وإن دَلّ هذا على شيْء فهو قاطع الدلالة على التسامُح بكُلّ ما تَنْطوي عليه الكلمةُ من معنى، وهُو يَدْحَضُ حُجَّة مَنْ يَدَّعي أن العرب المسلمين كانُوا يحاربُونَ الروم لمجرد أَنَّهم يخالفونهم في عقيدتهم، وأن غايتهم إكراه أهل الكتاب على الدُّخول في الدين الحنيف.

لقد كان الروم يُغيرون على بلاد العرب كرَّةً بعد أُخْرى، وهذا ما كان مُتوقَّعاً منهم لأن بلادهم كَانَتْ متاخمة لأرض المسلمين، فكان من الحتْم أن يَغْزوا ديارهم. **﴿وقَاتلُوا في سبيل الله الذين يُقاتُلونكم ولا تَعْتَدُوا إنَّ الله لا يُحِبُّ المعتدين﴾**[1].

☆ ☆ ☆

وهذا المؤلّف يُوالي قَوْله بما فيه بعض التصويب لما عَرَض من الرأْي فيقول إن «معاوية» أقام عرْشه في الشام، فكان لزاماً أن يستجيب لقانُون عجيب لأهل الشام، وهو نظرهم الدائم نحو الغرب.

والذي يستقيم في الفهم أن يُقال إن العرب أرادوا رَفْع لوائهم في عاصمة الروم ونشر دينهم كما صَنَعُوا مع الروم في مِصْر، ولا شك أن هاتيْن الأرضيْن بالإضافة إلى أرض فارس، كانت آمتداداً لدولة العرب مع اتساع رقْعتها واطِّراد

(١) سورة (   ) الآية (   ).

بعد حدودها؟ وما كان العرب في غفلة عن دولتهم التي كانت مع دولة الفرس في كفْتَيْ ميزان، وفي القرآن قوْله تعالى:

﴿**ألم. غُلِبَت الروم في أَدْنى الأرض وهُم من بَعْد غَلَبِهم سَيْغلبون في بِضْعِ سنين لِلَّهِ الأمر مِنْ قَبْل وَمِنْ بَعْد ويَوْمئذٍ يفْرح المؤمنون بِنَصْر الله يَنْصُرُ من يشاء وهو العزيز الرحيم**﴾[1].

وهذا ذِكر لما دار بَيْنَ الفُرْس والروم من حرْب، وقد انتصر الفرس ثم آلْتقى الجيْشان في السنة السابعة من الإلتقاء الأوّل وغَلَبَتِ الرومُ فارس بأمْر الله وفرِح العَرَب يومئذٍ، وعَلِمُوا بِهِ يوْم «بَدْر» بِنزُول «جِبْريل» بذلك فيهِ، مع فَرَحهم بنْصرِهم على المشركين[2].

☆ ☆ ☆

وإذا ما عَرَّجنا على الحديث الشريف وَجَدْناهُ - ﷺ - يقُول:

- [أَوّل جَيْشٍ من أُمَّتِي يركبُونَ الْبَحْر، وأوّل جَيْش من أُمَّتي يغزون مدينة «قيْصر» مَغْفُورٌ لهُم].

ويقول:

[هل سمعْتم بمدينة جانب في الْبَرّ وجانب منها في الْبحر؛ قالُوا: نَعَمْ يا رسُول الله هي القسطنطينية].

---

(١) سورة (الروم): الآيات (١ - ٥).

(٢) تفسير الجلالَيْن (ص ٥٩٦) (القاهرة: ١٣٢٦).

ويقول:

[فيفتحون القسطنطينيَّة بالتسبيح والتكبير فيصيبُون غنائم لم يُصيبُوا مِثْلها].

وهُو القَائل:

[إذا هلك كسرى فلا كِسْرى بعده، وإذا هَلَكَ قَيْصر فلا قَيْصر بعده، والذي نفْسي بيده لَتُنْفِقنَّ كُنـوزهما في سبيـل الله].



---

(١) Ögut: Meşhur Eyyub Sultan (132, 134, 135), Istanbul (1957).

إلى القسطنطينية

(خاتمة المطاف)

أما «القسطنطينية» فقد وَرَدها «أَبُو أَيُّوب» ـ رضي الله عنه ـ فاتحاً مرَّتَيْن.

ففي العام الثالث والأربعين للهجرة مضى إليها جيش المسلمين بقيادَةِ «بُسْر بن أبي أَرْطأة» و «سُفيان بن عوْفٍ»؛ وكان «أبو أيوب» من المحاربين؛ غير أن المجاعة أَجْهدت المحاربين كثيراً وحالت بينهم وبَيْن المضي قُدُماً، ولمّا ساءَت حالهُم رَجعُوا القَهْقري صَوب الشام، ولم يُقِمْ «أبو أيُّوب» في الشام بل مضى إلى البصْرة حَيْث نزل على «ابن عباس» ـ رضي الله عنهما ـ حَيْث أكرم وفادَتَهُ واستضافَهُ، وبالغَ في إكرامِهِ.

☆ ☆ ☆

وفي العام التاسع والأربعين للهجرة غزا المسلمون «القسطنطينية» بجيّش معقود اللهواء لـ «سُفْيان بن عوْفٍ»؛ ثم عَزَزوه بجيّشٍ آخر يقوده «يزيد بن معاوية»؛ ويقول:

«الطبري»: إن «يزيداً» كان معه «ابن عباس» و «ابن عمرو» و «ابن الزُبَيْر» و «أبو أيُّوب الأنصاري»[1].

وكَفَى الغُزاة من هذه الغزوة نَصباً شديداً، وتـأذُوا بشدْة البرد، الذي لم يكن لهم به عَهْدٌ من قبْل.

وفي تلْك الغزوة كانت وفاةُ «أبي أيُّوب» - رضي الله عنه - ووفاة «سُفْيان بن عوْف».

☆ ☆ ☆

وقد قيل إن العرب قبل محـاولتهم غزو «القسـطنطينيـة» دمَّروا الكثير من سُفُن «قسطنطين الثاني»، غير أنه طلبُوا فَتْح مدينة القياصرة ولم يظفروا، وذهبت جهودهم أدراج الرياح؛ وما ذاك إلا لأنَّ الروم آهْتدوا إلى ما رجَّح كفَّتهم على كفَّة المسلمين، وهو ما يُعرف بالنار الإغريقيَّة، فتأتّى لهم بها أن يحرقُوا سُفُن المغيرين، ويمكن القول إن النار الإغريقية قد أطالت بقاء الدولة البيزنطية[2].

ويقول الرحّالة التركي «أوليا جَلَبي» الذي عاش في القرْن السابع عشر: إن «أبا أيُّوب» - الأنصاري -، رضي الله عنه، و «مَسْلَمـة» قـادا جَيْشـاً في خـلافـة «معـاويـة» مـرتيْن إلى

---

(١) تاريخ الأمم والملوك - لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري (ص ١٧٣) (ج ٤) (الناصر ١٩٣٩).

(٢) Servier (T) Moss-Blundell: Islam and the Psychology Of the Musliman P: 110 (London: 1924).

«القطسنطينية»، وفي المرَّة الأولى أَبْرما الصلح مع الملك «قسطنطين»، وبعد أن نالا منه الجزية عادا إلى الشام.

أما في المرَّة الثانية فكان «أبو أيُّوب» أميراً على الجيْش كالشأنِ في المرَّة الأولى، وضَرَب الحصار على المدينة، وفَتح «غَلَطة»، وبينما كان يفتح القسطنطينية عقد الصُّلح، وبينما هُوَ خارج من «أيا صُوفيا» بعد أن تعبَّد فيها، إذ بالكفار يرجُمُونَهُ حتى يَسْتَشْهِد، وفي روايةٍ: أَنَّه مات من مرضٍ أَسْهَلَ بَطْنَهُ[1].

وهذا من كلام «أُوليا جلبي»، وهو لا يثبت عند النَّقْد، ولا وجود لهُ فيما بَيْن أيدينا من المراجع، ونحن لا نعْرف عن «أبي أيُّوب» أنه من قَادَةِ جُيُوش المسلمين، ولا نرى أي وَجْهٍ لِدُخوله كنيسة «أيا صُوفيا» للتعبُّد فيها!!!

وهنا نُفْسح المجال لِمَنْ يُقَيِّم حُجِّيَّةَ رواياتِ «أُولْيا جلبي» وإمكان الأخْذِ بها. يقول المحقّقون العارفون بأَن رِحْلة «أُوليا جلبي» ـ عند الترك ـ لا يُحْمل كُلّ ما وَرَدَ فيها محّمل الجدّ.

والمثقّفون منهم يروْن أنها لا تصْلُح إلا أن تكونَ مسْلاةً لنساءِ الحريم، فهي تشبه كتابَ «ألف ليْلة وليلة».

وقد وَصَفَ أحد المستشرقين عام (١٨٦٣ م): المؤلّف

---

(١) «أوليا جلبي»: (سياحة نامَهْ سي) (ص: ٤٠٠) (برنجي جلد: ج١) (استانبول: ٣١٤).

«أوليا جلبي» بأنه من أهو الغفلة ونفّاج كبير، نقدم في رواياته بصيصاً من نور الحقيقة[١].

ولعلّ مثل هذا الرأي في «أُوليا جلبي» مؤيّد لعدم أخذنا بروايته الأولى، وإن كانت روايته الثانية صحيحة مطابقة لكل ما وَرَدَ من روايات فيما بَيْن أيدينا من كُتُب.

☆ ☆ ☆

وجاءَ في «المناقب الخالدية»[٢]:

أنه ناجز في جهاده ونازل، وطالت به تلك الحال التي ما كان لشيخوخته الفانية أن تحتمل مثلها، فما وَهَتْ عزيمتُهُ، وإنما ضعفت قوته وعجزت طاقته، وناء تحت وطأة المرض؛ فقال له مَنْ حوْله إنّه شيخ عليل ولهُ رْخصة شرْعيَّـة في ترك الجهاد، غير أنه لم يُلْقِ إلى هذا القوْل سمْعاً، وأبى إلاّ أن يكون مجاهداً، وتحامل على نفسه في زحْفِ المسلمين إلى «استـانَبُول» ولمـا بَلَغَ موضعـاً فيها يسمى: «كـاغْير خـانَهْ» حتى تهالَكَ إعيـاءً على فراش خيمتِهِ، ثم دَخَلَ في النُـزْع الأخير، حتى انقضى أجله.

وقيل عنه وهُو يجُودُ بنَفْسِـهِ إنه آسْتَـدْعى مَنْ حَوْلـه من المجاهدين وطلب إليهم الصُّفْح عنه، واتفق لأحد مَنْ جاء

---

(١) Bombaci Storio dells Letteraturs turcs (P 409). (Milano: 1956).

(٢) Ogut Meshur Eyyub Sultan (S: 63) (Istanbul: 1957).

بعوده في مرضه أَنْ دعا الله له بالشفاء، فبسط إليه «أبو أيُّوب» رجاءَه أن يَدْعو الله له بالمغفرة إن كانَتْ ساعته قد دَنَتْ، وأن يَدْعُو له بالشفاء إن كان في عمره صِلة.

ويُسْتَشف من مثل هذا الرجاء أنه كان ينوطُ أَمَلَهُ بمواصلة الجهادِ في سبيل الله، وما تعلَّق بالحياةِ إلا لِيَنْصُر الـدِّين، وذلك كُلّ دُنياه وغاية ما يتمنّاه.

ولمّا ثقُلَتْ عليه العِلَّةُ دَخَلَ عليه «يزيد بن معاوية» يعودُه، وقال له: سَلْ حاجَتَك؛ قال: نعم حاجتي إذا أنا متّ فارْكَبْ بي ثم سُغْ بي في أرض العدوّ ما وَجَدْت مساغاً، فإن لم تجد مساغاً فَادْفِنّي ثم أرْجِعْ.

فلمّا مات ركب بِهِ، ثم سارَ بِهِ في أَرْض العدوّ ما وَجَدَ مساغاً، ثم دفَنَهُ وَرَجعَ.

☆ ☆ ☆

وفي روايةٍ أخرى: أنه قال لـ «يزيد بن معاوية» حَين دَخَلَ عليه:

- أَقْرِىء السلام مِنّي الناس، ولينطلقُـوا بي فَلْيُبْعِدوا مـا استطاعوا.

وحـدَّث «يزيـدُ» الناس بقـوْلِهِ، فـانطلقوا بجنـازتِـهِ مـا استطاعُوا[١].

(١) (الطبقات الكبرى) (الواقدي) (ص ٤٩) (ج ٣) (ليدن: ١٣٢١).

وفي خبرٍ آخَرَ أَنَّه أَوْصى أصحابَهُ قائلاً:

ـ إذا أنا مَتُّ فآحملوني، فإذا صافَفْتُم العدوّ فآدْفنوني تَحْت أَقْدامِكم، ففعَلُوا. وقبْرُهُ قُرْب سُورِ «القسطنطينيّة» معلوم مُعَظّم، يَسْتَسْقُونَ بِهِ فَيُسْقَوْنَ(١).

و «أَبو أيُّوب» ـ رضي الله عنه ـ بهذا من قوله يرسم في الخيال أجمل صُورةٍ، ويُودِعْ العقْل أرْوع فكرة، فقد بَلَغَ من شِدَّة تعلُّقه بالجهاد أن يكون بَيْن صفوفهم حتى وهو في نَفْسِهِ على أعناقهم، وأراد لروحِهِ أَنْ تَسْعد عند ربها برؤية جسدها الذي فارقتْه محمُولاً يدفع به في أرض العدوّ.

وشاءَ أن يتوغَّل مُبْعداً في تلْك الأرض حيّاً وميتاً، وكأنما لم يكْفه ما حقّق في حياتِهِ فتمنى مزيداً عليه بعد مماتِهِ، وهذا ما لا غاية بعده في مفهوم المجاهد بالمعنى الأصحّ الأدقّ.

ولقد عمل «يزيد» بوصيَّة «أبي أَيُّوبٍ» ـ رضي الله عنه ـ، كما نفّذ أصحابه ما طلب إليهم.

ويقول صاحب «العِقْد الفريد»: إن «يزيداً» أَمَر بتكْفينِهِ وحَمْله على سريره، وخرَجَ المسلمون يقاتلون الروم وهُمْ يَحْملون سريره، فأرْسل «قيصر» إلى «يزيد» يَسْأله متعجّباً عمّا يُشاهد؛ فردَّ عليه «يزيد» بقوْله: صاحِبُ نبيِّنا وقد سَأَلَنا

(١) (الإستيعاب في معرفة الأصحاب) (ابن عبد البرّ) (ص ٤٢٦) (القاهرة).

أن نقدّمه في بلادِك ونَحْنُ مُنفذون وصيّته، أوْ تَلْحق أرواحنا بالله.

فأرسل إليْه «قَيْصر» قائلاً: العجَبُ كُلُ العجب كيْف يَدَعُ الناس أبَاك وهُوَ يرسلك فَتَعْمد إلى صاحب نبيِّك فتدْفِنه في بلادنا، فإذا وَلَّيْت أخرجناه إلى الكلاب؛ فقال: «يزيد»: إنّي والله ما أردت أن أودعه بلادكم حتى أُودع كلامي آذانكم، فإني كافر بالّذي أكرهتُ هذا له، لئن بلغني أَنّه نُبَشَ من قَبْره أَوْ مُثِّل بِهِ، لا أترك بأَرْض العرب نَصْرانيّاً إلّا قتلته ولا كنيسة إلّا هَدَمْتها..، فَبَعَثَ إلْيه «قَيْصر»: أبوك كان أعلم بِكَ، فَوْحق «المسيح» لأحفظنّه بيدي سنة.

ثم قال «ابن عبد ربّه»: إنْ «قَيْصر الروم» بنى على قَبْره قُبَّةً يُسْرج فيها[1].

☆ ☆ ☆

أمّا عام وفاته - رضي الله عنه - فاختلف فيه؛ ومن المؤرخين من قال إنه عام خمسين (٥٠ هـ)؛ وقائل إنه عام واحد وخمسين (٥١ هـ)؛ ونجد هذا الإختلاف لدى «ابن عبد الحكم» والظن الأغلب أنه لم يفطن إلى أنه جعل وفاته سنة خمسين (٥٠)، في الصفحة الثالثة والتسْعين (ص: ٩٣)، وسنة إحدى وخمسين (١ هـ) من صفحة

(١) (العقد الفريد) - (ابن عبد ربه) - (ص: ١٢٨، ١٢٩) (ج٢) (القاهرة؛ ١٩٢٨).

ثلاثمائة وسبْعين (ص: ٣٧٠) من كتابه: «فُتُوح مِصْر وأخبارها».

☆ ☆ ☆

ونحن واجدون بَيْن مَوْت ـ أبي أَيُّوبٍ الأنصاريّ» ـ رضي الله عنه ـ ومْوتِ «خالد بن الوليد» ـ رضي الله عنه ـ ما يتيح لنا عَقْداً للموازنة.

فكلاهُما كان من صحابة رسُول الله ﷺ، والغُزاة المجاهدين الَّذين قاتَلُوا الرُّوم، إلاّ أَنَّ «خالداً»، حَمَل راية المسلمين في حرْب الروم فَفَتح الله على يديّه، كما تولّى إمْرَة الجيْش؛ أما «أَبو أَيُّوب» فما حَمَلَ رايةً ولا قادَ جَيْشاً.

وغَلَبتْ على «خالدٍ» صِفَاتُ: «لَيْثُ الكريهة» و«خوّاص الْغَمرات» وعُرِف بـ«سيْف الله المسْلول»؛ أما «أبو أَيُّوب» فَشُهْرَتُهُ بأَنَّه من أَهْل بيعَةِ الْعَقَبة، ومن السابقين، وأَنَّه مضيف رسُول الله ﷺ، ومات مجاهداً في أرضٍ غريبةٍ؛ وبَلَغَ من عُلُوّ المنْزِلَة عند التُّرْك ما لَمْ يبْلغه صحابي ولا مجاهد سواه.

وكلاهما قاتل من أَجْل الشهادَة، ولكنه لم يمُتْ من حوْمة الوغى وساحةِ القتال؛ ولقد حَزِن «خالد» أَشَدّ الحُزْنِ على موْتِهِ حَتْفَ أَنْفِهِ، وقال قولته المشهورة وعيناه تذرفان:

ـ ما في جَسَدي مَوْضع إلاّ وفيه ضَرْبة سيْف أو طَعْنة رُمْح أَوْ رقيَةُ سهم، ثم ها أنا ذا أَمُوتُ على فراشي حَتْفَ أُنفي كما

يمُوت البعير، فلا نامَتْ أعين الجبناء!!

أَما «أَبو أَيُّوب»، فَهُو أَرَقُّ حاشية وأَلْين جانبا، فهُو يواجه الموْت في إخْباتٍ وخُضُوع، وتَدْفعه نزعة روحيَّة غامرة إلى مواصلةِ القتال في الخيال، وضرب المثل في رمْزيَّـةٍ رائعة للمؤمن وهو يُجاهد بعد الموْت!!!

وها هُوذا شيْخُ الإسلام «أَسْعَدْ أفندي» يُشير إشارةً لامحةً إلى مـوت «أبي أَيُّوب» فيقول:

شَهِدَ المشاهـد جاهِـداً ومجاهـداً
ومكـابـداً بحـروبِـهِ مـا كـابـدا
حتى أتـى بصـلابـةٍ ومـهـابـةٍ
في آخـر الغزواتِ هـذا المشّهدا
قـد مات مَبْطُونـاً غـريبـاً غـازيـاً
فغـدا شيهـداً قَبْـل أن يَسْتَشْهِـدا

فكأن كيْفيَّة موتِهِ ـ رضي الله عنه ـ هي التي جعَلَتْه شهيداً يختلف عن غيره من الشهداء ـ وما أكثرهم ـ، ولكن الشاعر لم يلتفت إلى بقيّة خبَر شهادتِهِ الذي سَبَقَ أَنْ ألمحنا إليـه، وكـذلك كـان صنيع الأميـرة «عادلـة سلطانة» التي استغنت بالإشارة عن العبارَةِ في قوْلها:

ـ حين قَدِم «القسطـنطينية» لِفَتْـح الروم، استشهـد ذياك العظيم، وبتُرابِ قَدَمِهِ نالت تلْك المدينة الشرف، وأَصْبَحَ لدُرَّةِ ذاتِهِ القبر الصَّدَف.

قَبْرُهُ

- رضي الله عنه -

إن أوّل من ذكره قَبْر «أبي أيُّوب» - رضي الله عنه - هُو ؛ «ابن قُتَيْبة» في كتابِهِ «المعارف»[1]، فقال إنَّه دُفن بأصْل سُور «القسطنطينيَّة»، وأَمر «يزيدُ» بالخيْل فمرَّتْ عليه مُقبلةً مُدْبرة، حتى غبى، أيْ غاب أَثَرُهُ.

وهذا من قَوْلِهِ يُقيم الدليل على أن ذلك الْقَبْـر كان أَوّل أَمْرِهِ لحْداً في الأرض، ولم يكن بناءً ظاهراً.

أمّا أَمر «يزيدٍ» بمرور الخيلْ عليْه فيؤْخذ منه أَنَّه أراد إخفاءَ معالمه عن عُيونِ الروم مخافَة أن تحدّثهم نفوسُهم بِنَبْشِـهِ؛ ونَحْن نميل إلى هذا الـظّن على ما ذكـرَهُ صاحِبُ «العقْـد الفريد» من حديث «يزيد» مع «قيْصر» الروم.

كما أن بقيَّة الحديث - بَينهما - يؤكد أَنَّ «القيصر» تعهَّد بالمحافظة على القبْر، ثم بنى عليه قُبَّةً يُسَرَج فيها إلى اليوْم؛

(١) (المعارف) ص: ١١٩) (القاهرة: ١٩٣٢).

وإذا عرفنا أَنَّ صاحِبَ كتاب «العقد الفريد» مات عام (٣٢٨ هـ؛ أدْركنا أَنَّ القبر ظَلَّ قائماً، وكان مزاراً، لهُ في نفوس الروم حُرمته، ولعلَّهم توارثوا تَوْقِيرهم للقبر وصاحِبِه عن ملكهم.

ثم نمضي مع الزمان، لنجد في كتاب «تاريخ بغداد» للخطيب البغدادي، المتوفى عام (٤٦٣ هـ) قوله: إن شَيْخاً من أهل فلسطين رأى بنْيةً بيْضاء دَونَ حائط «القسطنطينية» وسأل عنها فقيل له إن هذا قَبْر «أبي أيُّوبٍ الأنصاري» صاحب النبيّ ﷺ، وأتى تلْك البنْية فرأى قبرهُ فيها وعليه مِنْديل معلَّق بسِلسلة[1].

وما وَرَدَ في هذين الكتابيّن يؤيد أن قَبْر «أبي أَيُّوب» بقي على الدهر قروناً متطاولة كأثر «إسلامي»، له في عاصِمَةِ المسيحيَّة قدسيَّتَهُ وشُهْرته.

إلا أن هُناك أمْراً يثير التساؤل عن طول تلْك الحقبة التي بقي فيها القبْر أثراً بارزاً، ذلك أن التواريخ تقول إن من يُدْعى: الشيخ «آقْ شمس الدين» كشفه حين حاصَرَ السُّلطان «محمد الفاتح» القسطنطينية، وغَلَب عليها عام (٨٥٧ هـ)، (١٤٥٣ م).

والكشف عنه يُفيد أَنَّه كان مُنْدثراً، والإندثار يتنافى مع

---

(١) (تاريخ بغداد) للخطيب (ص ١٧٤) (ج١) (القاهرة ١٩٣٩).

كل ما قيل من بلوغ الروم الغاية في المحافظة عليه معبّرين عن آياتِ إعْزازهم وتوقيرهم؛

فالأخذ بهذا من شأن الروم مع قبر «أبي أيُّوب» لا يمنع حقيقة تخطُرُ ببالنا وهي إجتياز جُيوش الصليبيين المعروفين بـ «اللاتين» بالبلاد البيزنطية؛ وكانت هذه الأعْوام أعوام شؤم وظُلم جار فيها أَهْل القسطنطينية بالشكوى من المعْتدين وطالما عَبَّر القساوسة في كنيسة «آيا صُوفيا» عما بلغت حال الروم من السوء بعد أن أنزلْ «اللّاتين» بهم الأذى في عقيدتهم الدينية[1].

فليس من المستبعد ـ ولوْ عَقْلاً ـ أن يكون القَبْر الشريف قد تخرب في ذلك الحين، وفي نظرنا أَنَّ مثل هذا التقدير أَقْرَبُ إلى الصواب من قَوْل مَنْ عَدّواً كَشَفَهُ أَثناء حصار العثمانيين للقسطنطينية من قبل الأساطير، فقد شَبَّه «مرْدتْمان» هذا الكشف بأسْطورةِ وجودِ الرمْح المقّدس في حصار «أنطاكية» على عهّد الصليبيين دُون أن يَدْعم ما يذهب إليْه بدليل[2].

ونشير إلى فَتْح «القسطنطينية» بأن حِصارها من قبل

(١) Mijatovich The Conquest of costantinople by the turks (P. 18) (London: 1892).

(٢) Morditmonn. The Encyclopaedia of islam (1960).

السلطان «محمد الثاني» إسْتَمَّر تِسْعة وخمسين يَوْماً، ثم كان الفتْح فلُقّب بـ «الفاتح».

وكان - رحمه الله - متسامحاً إلى أَبْعد حدّ، فَأَمَر بانتخاب البطريق، وأرسل إليه جواداً مطهّماً يركبُهُ إليه للقائه؛ ولمّا التقى بِهِ تحدَّث معه طويلاً، ودعا الله لهُ بخيْر، وأكّد له أنه يستطيع أن يفيد من مودَّةٍ له في نفسه، كما أن كل ما كان للبطارقة من أسلافِهِ من حقوق تميِّزهم باقية على سابقة عهْدها وهُو من يتلقّاها عنهم، فدعا كل من كانَ في صُحْبة البطريق من قساوسة السلطان، ثم آنحنى البطريق على قدم السلطان يقبِّلها[1].

ولعلَّ هذا من صنيع السُّلْطان «محمد الفاتح» كان على غير ما يتوقَّع الروم، فمِمّا يُروى أن أَهْل «القسطنطينيَّة» شيباً وشْباناً آتَّخذوا لهُم مُوئلاً في كنيسة «آيا صُوفيا»، وفي عقيدتهم أن مَلَكاً من الملائكة سوف يهبط عليهم من المساء ويقدّم سيفاً إلى رجُلٍ منهم يدفع به الترك عن مدينتهم ويُطارد فُلُولهم إلى حدود فارس.

ولعلهم علموا عِلْم اليقين أن الفاتحين من المسلمين ليْسوا بظالمين ولا مُتعصْبين بل أكرم المتسامحين.

---

(١) (عثمانلي تاريخي) - أحمد راسم؛ (ص: ١٨٨، ١٨٩) (برنجي جلد - المجلد الأول) (استانبول: ١٣٣٠).

ويقول شاعر تركي معاصر في منظومةٍ طويلة يُحَيِّي بها السلطان وَيُمجّد بها عظائمه:

(حبَّذَا فَتْحك المبارك من فَتْحٍ أيُّها الهُمام
قد فَتَحْت لنا «استانبول» منذ خمسمائة عام
ولكل قَلْب منك اليوْم ما يشبه براً يمتد
وعلى ضريحك من حُشُود الناس سيْل متدفق مُزيدُ
ومن حصارك ارتعدتْ فرائض ذو العزّم الخائر
وفي فَتْحك كان لك من الأولياءِ مُناصِر
وما بَشَّر به النبيُّ أَضْحى البيِّن الظاهر
ولقد شرفت لأنك أَصْبَحْتَ لـ «أبي أيُّوب» الْمُجاور)

☆ ☆ ☆

فكأن مجاورة الفاتح لقبر «أبي أيُّوب» كانت له أعظم مجْد سُرعانَ ما ذكره لهُ مادِحه بعد خمسة قرون، وكان السابق إلى الفهم أَن تراخي الزمن جدير بِطَمْس هذه الذكرى.

ويسُوق قدماءُ المؤرخين شرح كيفية اكتشاف قبر «أبي أَيُوب» ـ رضي الله عنه ـ على النحو التالي، فيقولُون إن مَنْ يُدْعى الشيخ «آقْ شمس الدين» وهُوَ من جُلَّةِ العلماء والأتقياء صَحَب السُّلطان في حملتِهِ، وكان لهُ من شفافية الرُّوح ما يتيح له أَنْ يكْشف الحُجُب، فعيَّن للسُّلْطان يوْم الفتْح وساعته وأسْماءَ الحصون التي يغلب عليها.

ولمّا مرَّ هذا من كلام الشيّخ بسَمْع السُّلْطان حتى أَمَرَ في التَّوِّ جَيْش المجاهدين بالزَّحْف والشّدّ على الروم في الْبَرِّ والْبَحْر، غَيْر أَنَّ الحصُون التي ذكر الشيخ أنها ستسقُط في أَيْدي الأتراك وفي وقْت معلوم ثبتَتْ على الهجوم لاستبسْال المدافعين عنها، ونمي الخبر إلى أبي السلطان فَأَخَذَهُ الأسى، ودخل الشيخ «آق شمس الدين» خَيْمته، وحَسَرَ عمامته عن رأسه وسَجَدَ وهُو يُرْسل الأنين وتفيض عَيْنه عن الدَّمْع؛ وما مضى على ذلك طويل وقْتٍ حتى رَفَعَ رأسه وقال:

ـ الحمد لله لقد فُتح الحصين

وكان الأمر كما قال، وسُرَّ السُّلْطانْ سروراً لا مزيد عليه، والتفت إلى عظيم من أَهْلِ مشورتِهِ يُدْعى «أحمد باشا» قائلاً:

ـ حَمْداً لله، لقد وقَعَ الأَمْرُ على ما ذكر الشَّيْخ، أَتَعْلَمُ أَنَّ مجالستي لهُ آثَرُ عِنْدي وأَحَبُّ إلى نَفْسي من فَتْح «استانْبُول»!!!

☆ ☆ ☆

وَدَخَلَ السُّلطان عليه ذات يَوْمٍ وهو يقول: إن فَتْح «استانبول» إنما تَمَّ بفضْلٍ من هِمَّتِهِ، والحمْد لله، ورَغِبَ إلَيْه أَن يجعله من مريديه..، فَرَدَّ عليه الشيخ بقوْله:

ـ إن يكـن مُريداً لهُ يُصْرِف قلْبه وفكرهُ عن الدُّنيا وما فيها، فيختل نظامها ويفسد أمرها.

وقدَّم السلطان إليْه مالاً فَعَفَّتْ نفسه عن مُيُولِهِ.

واتفق للسُّلطان ذات ليْلةٍ أَنْ دعاهُ إلى مجالَسَتِهِ، وأخذا بأطرافِ الحديث. . ، حتى مطلع الفجر، وبعد الصلاة قال له إنه قرأ في الكُتُب أَنَّ قَبْر مضيف الرسُـول ﷺ «أبـي أَيُّوبٍ الأنصاري» ـ رضي الله عنه ـ في «استانبول»، وطلب إليْه أن يدُلَّه على موْضِعِه، فقال: يا موْلاي إني آنَس نوراً يهبط على بُقعةٍ من الأرض، وأَحْسَب أَنَّ هذه البقْعة موضع قَبْرِه.

وبعد مُدَّةٍ من الزمن قال للسُّلْطان:

ـ نعم، لقد ٱلْتَقَيْتُ بروح «أبي أَيُّوب» الشريفة، فزفت إليَّ التهنئة بفتْح «استانبول»، وأظهـرَتِ السرور بـإِخْراجهـا من الظلمات إلى النور.

☆ ☆ ☆

وانـطلق السلطان والشيـخ إلى مـوضـع الْقَبْـر، وطلب السُّلْطان تعيينه ليُقيم عليه بناء، وقال «آق شمس الدين»؛ لوْ حَفَروا هُنا لظهرت لـوْحة من رُخـام كتب فيها أن هـذا قَبْر المضيف «أبي أَيُّوب الأنصاريّ».

وعَرَتِ السلطان هِزَّة عجـبٍ وطَرَبٍ، فلم يكد يتماسك في وقفتِهِ، وأَمَرَ فـأقيم لمضيف الرسـول ﷺ ضريـحٌ، كما

أُقيمت لسُكنى الشيخ «آقْ شمس الدين» حُجُرات، وبُني في تِلْك البقعة مَسْجد[1].

وعَظُمت منزلة الشيخ في نفس السلطان، وزادت محبَّته لهُ إلى المدى الأبْعد، وشاء أن ينخرط في سِلْك مريديه، إلا أن الشيخ أبى ذلك على السلاطين، كما أقام المسجد والزوايا، وما قبِلَ الشيخُ الإقامة فيها[2].

وكأنما كان حُبّ الشيخ أن يكشف الْقَبْر، فأظهر الكراهية لكُلّ آية أُخْرى من آيات تعظيمه وتكريمه.

وكان كشْف القبْر في عداد كراماتِ «آق شمس الدين» التي تناقَلَتْها أَلْسنة المديح على الأيام، وأصبَحَ عِنْد التّـرْكِ خصوصاً مكْرُمة له باقية.

كما اقترن مجد «الفاتح» بمأثرة الشيْخ وجلال ذكرى الصحابي الجليل - رضي الله عنه -؛ ولعلّ الفضل الأعظم منسوب إلى مَنْ بَشَّر بالفتْح فَشَحَذ العزائم، وكشف القبر الشريف فعمر قُلُوب الترك وبلادهم بهذا النُّور المنْبَعَث عن صفاء الروح، وروْعة الإيمان.

---

(١) (طاش كبرى زاده) (الشقائق النُّعْمانية) على هامش وفيات الأعيان (لابن خلكان. (ص ٣٤٦) (ج١) (القاهرة: ١٢٩٩).

(٢) شمس الدين سامي (قاموس الأعلام) (ص: ٢٦٦) (برنجي جديد: المجلّد الأوّل) (استانبول: ١٢٠٦).

وهـذا شاعـر تركيٌّ يحُـوِّم على جانب من ذلـك المعنى بقوْله:

رفيق الفاتح في الأيّام السُّود آق شمس الدين
وفي جبينه أشرق نور الفتْح المبين
بعيْن الحقيقة النّصْر أَبْصر.
وهو مَنْ به بشّر
وهكذا يرى البعيد أرباب اليقين.[1]

☆ ☆ ☆

وهناك رواية أُخرى في اكتشاف الْقَبْـر، يرويهـا الرحـالة «أُوليا جلبي» تختلف عن رواية «طاش كبرى زاده» في قوله إن الكتـابة على اللوحـة الرخـامية كـانت بالخط الكـوفي، ويضيف أنَّ كُلًّا من سلاطين «آل عثمان» كان يتبرَّك بإقامتِهِ الأبنية حوّل قبره، فأصْبَح ما حوّله أشبه شيْءٍ بالخبة.

ثم تصدى لوصف الضريح فقال إن عليه قُبَّة، وله نوافذ مغلقة على فناء المسجد، وجدرانه مزدانة بنفيس القيشاني، وتحيط به قضبان وشمعدانات من الفضة الخالصة.

ولا نفيض نَحْن في روايات كشف القبْر ووصفه إلى أبعد من هذا، فالمؤرخون جميعاً لا تتباين رواياتهم، ويتفقون في

---

(١) (سيـاحة نـامة سي) (أوليـا جلبي) (ص: ٤٠١) (بـرنجي جلد: ج١) استانبول (١٣١٤ هـ).

آختيار أعظم ما يعبّرون به عن التعظيم والتكريم، لكننا نُحِبُّ أَنْ نلْحظ ملاحظة واحدة هي قول «طاش كبرى زاده» بـأن الكتابة التي كانت على الضريح هي باللغة العبرية، وهذا باطل فاسد، عقلاً ومنطقاً، ويصوّبُه قول «أوليا جلبي» بأنها كانت بالخط الكوفي، ذلك أن الخط الكوفي القديم يشبه الخط العِبْري، ومن هنا كان اختلاط الأمر وآلْتباسُهُ.

☆ ☆ ☆

وكان للترك مَيل قديم إلى أن يُدفنوا قريباً من قَبْر «أبي أيُّوب» تبرُّكاً بِهِ، ورغبة منهم في أن يكونوا إلى جوار هذا الصحابيّ الجليل، رُبّما شَفَعَ لهم أو نَفَعَهم عند الله تعالى أنهم في رحابِ صحابي عظيم من صحابة رسُول الله ﷺ.

وما كانت بركاتُهُ لتغمر الأموات دُونَ الأحياء، فمن الأحيان من شَرُفوا بقُرْبهم منه، وتباهُوا منتسبين إليه.

فهذا شاعر يتلقَّب في شعره بـ «أيوبي»، وقد عاش في عصر السلطان «سليمان القانوني» أي أنه من أهل القرن العاشر الهجري، وله منظومة تتألف من نحو ألْف وخمسمائة بيْت في مناقب السلطان «سليمان»، وقد مدحه فيها، ووصف حروبه، وفي المنظومة فصل عنوانه: (في مناقب أبي أيُّوب الأنصاري)[١].

---

(١) Anbegger: Eyyubi'nin Manakib-i. Sultan Sûleyman Tapih Dergisi 2 120 (Istanbul: 1944).

والشاعر يذكر السبب في اختياره ما يُعرف عند شعراءِ الترك بالمخلص أو اللّقب الشعري وذلك في أبيات عِدَّةٍ منها قَوله:

ولمّا كان لي بالقُرْب منه المقام
وطالت عليَّ الأيام والأعْوام
بمخلص الأيوبي تلقّبْت
وعلى ديار الشعر وَفَدْت.

☆ ☆ ☆

ولو ذهبنا نتلمس ما عبَّر بِهِ التُّرْك عن تقديسهم لضريحه وفرط اعتزازهم بِهِ، على أن ذلك من آيات الإيمان، لوجدنا الشيْء الكثير الذي يَدْعو إلى الإطالة والأطناب، وقد يخرج بنا عن موضع البحث والترجمة إلى موضوع التركيّ الإسلامي؛ وهذا غير ما نقصد إليه.

أما الزائرون للضريح، بِقَصْد التَبرُّك والإستشفاع وغير ذلك، فيصفهم أحد الشعراء فيقول إن قلوبهم تحترق بمحبتِهِ، وإن بينهم زمْنى ويائسين ينوطون أملهم بكراماته، ومنهم رقيق الحال وصاحب الثراء، ورفيع الشأنِ وخامل الذكر، كما يمضي في وصّفهم إلى حدّ تمييز العسكريين منهم بمختلف رُتَبِهم؛ يقول:

وَدَخل بيننا من السُّيّاح أَرْبَعُونَ أو خمسون

منهم الأسْود والأبيْض الجبين
وكُلّ مناله حاجةٌ إليْك
يا موْلانا،
لا شَكَّ أنها مقضيَّةٌ عندك

☆ ☆ ☆

ونَحْن نُدْرك من خلال كُلّ ما قيل ونظِم حقائق أَهمُّها:

أن «أبا أيُّوب» ـ رضي الله عنه ـ أعظم أولياء الله منزلة «عند الترك بعامَّةٍ، وأن قَبْره لا يُزار التماساً للبركة فقط، بل ولقضاء الحاجات والدعاء بالفرج بعد الشدّة، إيماناً منهم بكراماتِهِ، لأنه متمكن عند الموْلى ـ عز وجَلَّ ـ مقَبُول الشفاعة.

وأن السيّاح من كُلّ الأجناس والأدْيان في زُمْرةِ الزائرين، وهذا ما يغيّر عُرفاً كان سائداً في «استانبول» إلى وقْتٍ قريب، إذ كان مسجد «أبي أيُّوب» ـ رضي الله عنه ـ هو المسجد الوحيد في «استانْبول» الذي لا يزورهُ إلّا المْسلم.

ويؤيّد ذلك ما قيل من أن أحد رجال السِّلْك السياسي (الدبلوماسي) في «استانبول» تخفّى بوضع طربوش على رأْسه، وفي صُحبة أَحد حُرّاس سفارتِهِ، انتهز من حَرَس المسجد غفلة ووجد سبيله إلى داخل المسجد (الضريح)[1].

(١) Davey: The Sultan and his subjects P. 273. (London 1908).

وهذه الواقعة تشبه ما ذكره الكاتب الفرنسي «بيير لُوني» في قِصّـةٍ من قصصـه، وأحـداثهـا من نسـج الخيـال على الأرجح، إلا أن زيارته لـ «إستانبول» وعلمه بمـا حولـه من شؤون الترك، مما يضـع كلامـه ـ أو طائفـة منه ـ في كفّـة الرجحان، فهو القائل إن مسجـد «أبي أيُّوب» في نهاية مـا يُعْرف بـ «القرْن الذهبي»، وقد أَقامه السلطان «محمد الفاتح» في موضع قبر «أبي أيُّوب» الصحابي.

والـدخول إليـه كان في كـل العصور محظوراً على غير المسلمين، بل وما كانوا يضمنون مواجـهته.

وهذا الأثر مبني بالرخام الأبيض، وهو في موضع مُنْعَزِلٍ مُحاط بالمقابر من كُـلّ صَوْب، وتشـاهد قُبْتُهُ ومنارتُـه عبر أشجـار السَّرُو العتيقـة، وطُـرْق تلك المقـابـر تحت وارف الظلال، وأرضها بالحجارة والرُّخام مرصوفة، وعلى جانبيْها أَبْنية ما زالت محتفظة ببياض رخامها على قَدَمها، وبياضُها متألِّق، إلى جانب سواد الأشجار، ومئات من القُبُور المذهبة والمحاطة بالورُوديَطُلُّ على تلْك الطرق التي قَلَّ نورها، وهي قَبورٌ لأعاظم الدولة وأكابرها، أما قُبُور مشايخ الإسلام فلهـا مقصورة في إحدى تلك الطرق الحزينة.

ويمضي الكاتب الفرنسي في الـوصف للزيارة والمكـان فيقول:

بأنه استطاع دخول الفناء الثاني للمسجد في صباح اليوم

السادس من شهر أيْلول (سبتمبر) عام (١٨٧٦ م)، وقد أقفر المكان إلا منه ومن دَرْويشيْن يكادُ قلباهما ينخلعان رُعباً من خطورة تلك المغامرة، فهذا الموضوع أعظم المواضع قداسةً في «استانبول»، وما شاهَدَتْهُ قَطُّ إلا عَيْن المسلم.

ويدَّعي الكاتب أَنَّه أقام فيِ الحيّ، فيقول إن الفصل كان فَصْل شتاء، ويصف قطرات المطر والريح الهوْجاء وهي تطرق نافذة داره الموحشة، ولا صوّت لِغَيْر المطر والريح فيما يُخيِّم حَوْله السكون، والمصباحُ التركيُّ العتيق المتدلّي فوق رأْسِهِ هُوَ وحده يشتعل في حيّ «أَيُّوب».

ثم يقول:

إنَّه قلْب الإسلام؛ وفيه المسجد المقدَّس، الذي يُحْتَفَلُ فيه بجُلُوس سلاطين بني عثمان على العرْش، ولا يسكن هذا الحيَّ إلا دراويش بلغت منهم الشيخوخة، وحرّاسُ المقابر.

☆ ☆ ☆

مسجد «أبي أَيُّوب» وَبَرَكةُ الْعِلْم

ولقد دَرَج الترك على عَادَةٍ مألوفة إلى يَوْمنا هذا، وهي أن يفْرِضُوا على صغارهم ـ أوَّل عهد بالتعلُّم في مدارسهم ـ أن يمضوا إلى قَبْر «أبي أَيُّوب» لزيارتِهِ، وهناكَ يلتمسون البركات والرحمات، وأَلسنتُهُم تلهجُ بالدُّعاء.

واستفتاحْ الصّغار حياتهم التعليمية بتلك الزيارة بُرهانٌ

قاطع على أن لِـ «أبي أَيُّوب» في قلُوب الترك مكانةً ومنزلة، وليس من ريْبٍ في أن تلْك التجربة الأولى لا بد أن يكون لها أثرها في نفوسهم الفتيَّة، وسلطانها الموجّه لفكرهم وشعورهم بعد أن يمتدُ العُمْر بهم.

والتُّرك بذلك حريصُون على تلْقين الخلف أمهات الفضائل عن السَّلَف، وهم يريدون للأبناء أن يكُونوا أمناء على وديعة الآباء، وأن يشبُّوا على ما شاب عليه أهلوهم وقومهم من توقير وتقديس لضيف الرسُول ﷺ، وعظيم المجاهدين، ولكي يكون الدرس الأوّل غير منسيّ الأثر في نفس الصغير، فلا شك أن الترك أَحَسَنُوا صَنيعاً باختيار الوقْتِ الأفضل لتلقين أبنائهم ما يُحِبّون لهم أن يذكروه ولا ينسوه.



وبركة سُنّةِ الختان

ولهم عادَةٌ أخرى مع صغارهم تتعلَّق بـ «أبي أيُّوب»، فهم إذا عقدوا العزْم على ختانهم، حَمَلُوهم معهم لزيارة قَبْرِهِ.

وكان خَتْن الطفل مناسبة عامة، والإحتفال بها من أصيل التقاليد التي يأخذ التُّرْك بها، واحتفل السلاطين بتلك النمناسبة أعظم آحتفال، مما أَدْى إلى ظهور فن شعري في أَدب الترك القديم، يتضمَّن وصف ما يُقام في تلْك الإحتفالات من ولائم، ويُسمي ما يُنظم في هذا الفن

(سُورْ نامه) وهي كلمة فارسية معناها: كتاب الضيافة أو الحفل.

☆ ☆ ☆

صِفَةُ القَبْر الشريف

وقبل أن نتابع القوْل إلى غاياته في قبر «أبي أيُّوبٍ» - رضي الله عنه -، نتذكر أمْراً رواه المؤرخون بأنه بَيْنما كانت المعاول تُنَحّي الثرى عن مرقده في الأرض، وكأنما كانت الأيدي الخفيَّة التي سَخَّرها الله تعالى لتميط اللثام عن وجْه حقيقةٍ قدّر لها خُلُود البقاء بعد أن طال عليها الخفاء، إنْبجس تحت ضرباتها، وما أشبهها بخفقات الشوْق، نَبْعٌ من ماءٍ عَذْب فرات، وسرعان ما صنع لهُ حوْض يصونه من أَنْ يضيع في تدفُّقِهِ.

وطالما ظمئت أرواح المؤمنين في الدهر الطويل إلى رشفاتٍ من هذا الماء السلسبيل، فتزاحموا عليه بالمناكب ليصيبُوا منه ما يشفي غليل روح عن حنينها إلى نفحة من نفحات النبيِّ ﷺ جاءَهم بها مضيفة الكريم، وإذا كان هذا الماء متعلّقاً في نفوسهم بمعاني الإيمان، فلا بُد أن تكُونُ له عندهم أعاجيب وأعاجيب!!!

☆ ☆ ☆

ويحْمل الزوار إلى الضريح الصبر والْعَنْبر والشمْع

الأبيض، وهو مفتوح لهم على مِصراعيه، وبه مصباحان ينيران لَيْلاً ونهاراً؛ وعند رأسه عَلَمٌ مُثَبت في الأرض أَخْضَر اللَّوْن، وقد أُقيم على أنه رمْز لمهمّة «أبي أيُّوب» المجاهد.

وهذا العلم في ضريحه، وما يقال عن سبب وجوده، يُذكّرنا بما سَبَق لنا القوْل فيه من مُتعلّق حقيقته ورمزيَّتِهِ.

ولقد وَقَفَ السُّلْطان «محمد الفاتح» على الضريح وقْفاً له بيانٌ في وثيقةٍ حرِّرَت باللُّغةِ العربية، وهي تتألَّف من مائةٍ وسبع وتسعين ورقة، محفوظة بدار الوثائق في «أنْقَرَة»؛ وفي «طوبْ قابُو سراي» وثيقة وقْفٍ أُخْرى.

كما وَقَف أَوْقاتاً على زاويةٍ أقامها بجوار الضريح، وأنشأ بجانبه مبرَّة ومدرسةً، مؤكّداً فرط اهتمامِهِ وإجلاله، والأرجح أن يكون تاريخ بناء تلْك المدْرسة بعد بناء مسجد «أبي أيوب» الذي تَمّ عام (٨٦٣ هـ).

ويؤخذ مما جاء في وثائق الوقف أنها كانت في حرم المسجد، ولها قباب محلاّةٌ بالنجوم، وتحْوي ست عشرة حُجرة، وفيها كان طلبة العِلْم يقيمون، وبها خزانة كُتب عامرة لها خازن مُوكل يحْفظها أمّا من يتصدرون لإلْقاء الدروس بها، فكان الواحد منهم يتقاضى في اليوم خمسين دِرْهماً لمُرَتبٍ جارٍ من قبل السلطان، ومن في المدرسة يسْكنونْ ويطعمون لِوَجْه الله، أما المبرَّة المقامة إلى جوارها فأُعِدَّت

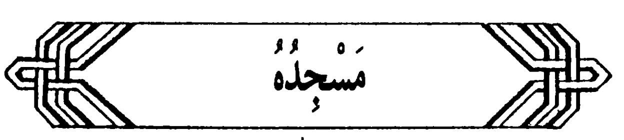
لحلول الوافدين من الفقراء أَضْيافاً بها.

☆ ☆ ☆

ويحدّثنا مولانا «محمد نشري» - المؤرخ العثماني القديم -، وهو يَسْتَغْرِق صفات السلطان الفاتح «محمد الثاني» من حيث كونه رجُل بِرٌ وتَقْوى، فيقُول بأنه إبتنى مسجداً لِمَن يُسمّى الشيخ «وفا زاده» وداراً للصوفيّة يمارسُون فيها مجاهداتهم ورياضتهم الروحية، ثم يذكر أنه أقَام مبرَّة ومدرسة في مَحَلَّةِ «أبي أَيُّوب» الأنصاري، وضريحاً على قَبْره، وشيَّد حمَامات عِدَّة لم تَرَ الدُّنيا من قَبْل مثيلاً لها[1].

☆ ☆ ☆

(١) جهاتنما) (مولانا محمد نشري) (ص ١٨٢) (لايجيك: ١٩٥١).



مَسْجِدُهُ

ـ رضي الله عنه ـ

في خَبر السُّلْطان «محمد الفاتح» مع الشيْخ «آقْ شمس الدين» حقيقة ما برح أصحاب التواريخ يذكرونها على أن لها ثباتاً في اليقين لا يَتَـزعْزع، وانبنـى عليهـا من التقاليـد ما تمسكت به الدّولة العثمانية عبر القرون، وأظهر لها سلاطينُها في آيات التبجيل والوفاء ما لم يمكنهم طرْحه والتحوَّل عنه إلى سواه.

فلّما أَلْهَم الله الشيخ «آق شمس الدين» أن يقع على معرفة مَوْضع مرْقد «أبي أَيُّوب» تحت الثرى قَدم إليه السلطان سيْفاً نطقَهُ به، فكان من عادَةِ جميع سلاطين آل عثمان من بَعْدُ أن يَتَقَلّدوا سيْف سلفهم «عثمان» ـ جدّهم الأوّل ـ بعد تربُّعهم في دسْتِ السلطنة بأيـام خمسة أو سِتَّـة، وذلك في حْفْـلٍ يُعْرَف بتقليد السَّيْف.

وكان هذا الْحَفْل يُقام في ذلك المسجد الذي شيَّده الفاتح لِـ «أبي أيُّوب» ـ رضي الله عنه ـ.

وكيفيَّة الخبر في ذلك أَنَّ السُلطانَ أَمَرَ أَوَّل ما أَمَرَ بإقامة قُبَّةٍ على الُقَبْرِ، ولما تَمَّت إقامتها أمر ببناء مسجد شَرْعِيّ الْقُبة ذي منارتيْن، وافتتح الفاتح مسْجد الصحابي الجليل في جمْع غفير من العلماء والفضلاء والوُزراء، بتلاوةِ القرآن الكريم، ودُعاءٍ بالعربيَّة، وآخر بالفارسيَّة.

ولتَعْليل الكلام بالعربيَّة والفارسيَّة، نقول إنَّ العربيَّة عند التُّرْك كانت ـ وما تزال ـ لغة القرآن الكريم، والحديث الشريف والْعلْم، والعِلْمُ بها مفروض على كُلّ تركِيّ أخلص نفسه للدرس والتحصيل، ليدخل في زمرة أَهْل الدين والعلم والْفَضْل.

أما الفارسيَّة فكانت لغة الأدب الرفيع والثقافة العالية التي تأثرت بها لغة الترك؛ كما آنْبثق أَدَبُهُم في كنَفِ أدبها، وأصبح صدىً له وصورة منه، وكان العلم بالعربيَّةِ والفارسيَّة إلى جانب التركيَّة ضرورة ثقافيَّة لا غُنْيَة لتُركيّ عنها، كما ندرك ذلك من تراثهم الروحيّ والعقليّ في شتى المجالات.

وهذا ما يلزم منه أن يكون تنظيم الحفل بتلك الكيفيّة، رغبة في التعبير عن النزعة الإسلاميّة في الدولة العثمانيَّة بعامَّةٍ، ومبالغةً في تمجيد ذكرى «أبي أَيُّوب» ـ رضي الله عنه ـ، بلسان العلماء والبُلَغاء.

ولذلك الحفْل سِمَةٌ رُوحيَّة أخرى نتبيَّنها مما قيل فيه من أن كل الحضور في المجلس رفعوا صَوْتاً واحداً متردّد الأصْداء

قائلين: (آمين) وعيونهم تفيض من الدَّمْع، مبتهلين إلى الله تعـالى، وإلى رُوح رسُولِـهِ ﷺ، ورُوح مُضيفه ـ رضي الله عنه ـ، متضرّعين إلى المْولى عز وجل أن يبسط على الدولة جناح رعايتِهِ؛ ثم قرأوا (الفاتحة).

☆ ☆ ☆

وافتتاح السلطان لمسجد «أبي أيُّوب» مع كـل ما سلفت الإشارة إليْه من مظاهر إجلال الدين، وعدِّه أوّل وأَعْظم ما تعْتزّ بِهِ الدولة العثمانية كأساسٍ لكيانها تحافظ عليه ليحفظها وتأخذ بتعاليمه لَأن فيّ الأخْذ بها صلاحها. . ، لا شَكّ أنه مُرْتبط بـ «أبي أيُّوب»، وما كان من إقامة السلطان مسْجداً له يُتَوَّج فيه السلاطين جميعاً من بعد، فمثل هذا المسجد لن يكونَ إلاَّ أعظم المساجد منزلةً عنـد العثمانيين، لأنّـه يُتيح لعاهل دولتهم أن يمسك بأزِمَّة الحكم فيه، في رمزيَّةٍ دينيَّةٍ رائعة هي المثال الأروع للتعبير الروحيّ يُذكّر السلطان بعظمةِ الرحمْن، ويبعثه على أن يسأله التأييد لدولتِهِ والنَصْر لجُنْدِه، كما يلفت رعاياه إلى أنهم في ظلالٍ ورأفةٍ للمسجد، فعليْهم أن يُقيمُوا عَمُودَ الدين، ويلتفُّوا حـوْله، وهم يتقون الله حقّ تُقاتِهِ.

وهذا كله ما يجعل للصحابيّ الجليل ذكرى لا نسيان لها على مدى الزمان، يزيّن إسمه بَيْن الناس أجمعين بـالحمد والثناء، على أَنَّه أكْرم وفادة نبيّ الإسلام ـ عليه أفضل الصلاة

وأَزكى السلام ـ فكان صاحِبَ الفضل الـذي لا يجْحد. . ، كما جاهد في سبيل الله وقضى نَحْبه في أرض غريبةٍ، وكان قبره ومسجده خير ما يُذَكر المسلمين بفريضة الجهاد، الذي لم يُدْرك العثمانيّون من حروبهم معْنىً سواه.

☆ ☆ ☆

ولقد جعل العثمانيون بعد الفاتح قبر أبي أيُّوبٍ مناطاً بِفَضْل عنايتهم، لأنهم نظروا إليْه نظرتهم إلى شعارٍ لقوميَّتهم الإسلاميَّة ومنارٍ لدولتهم العليَّة.

فها هِوذا السلطان «أحمد الأوّل» يُصدر أمره فَتُزيَّن جَدَران الْقَبْر بجميل ونفيسٍ من الصّيني، ويُكسى بابُ الضريح بالْمَرْمر الأبْيض، كما يُحاط الْقَبْر الشريف بسياجٍ من قضْبان الفِضّة، وكان ذلك في عام (١٠١٦ هـ).

ولما تولّى السلطنة «مُراد الرابع»عام (١٠٣٢ هـ)، رأى أن يُنْسب إليه شرف المشاركة في تَعَهُّد المسجد بفضْلٍ من عنايَتِهِ، فجعل الفِضَّة الخالصة جُزْءاً من أَجْزاء المنْبر.

وكذلك شَأن السُّلْطان الذي خَلَفَهُ، وهو السُّلْطان «إبراهيم»، فقد وَضَعَ شمعدانيْن كبيرين نفيسين فيه.

وفي عهد السلطان «أحمد الثالث»، الذي تملَّك عام (١١١٥ هـ)، شبَّ حريق حوّل المسجد، وامتدّت ألْسِنَةُ

اللهب إلى منارتَيْه، فَأَمر السُّلْطان بهدْمِهِما لإعادَةِ بنائهما[1].

أما السلطان «محمود الأوّل» الـذي آعْتلى العرْش سنـة (١١٤٣ هـ)، فنقـل إلى ضريـح «أبي أَيُّوبٍ» من الخـزانـة السلطانيَّة حَجَراً عليه أَثَر قَدَم النبيِّ ﷺ الشريفة.

ولتوضيح ذلك نقول إن السلطان «سليماً» لمّا عاد من مِصْر إلى «استانْبُول» ومعه بعض الآثار النبويَّة الشريفة، جعل لها حُجْرَةً خاصَّةً في قَصْرِه، وكان يحتفل في كُلّ شَهْرِ رمضان بزيارتها مع عظماء دَوْلَتِهِ[2].

وهذا صَريح في أن ذلك السلطان أراد بذلك أن يُتْحفَ الضريح بتذكارٍ للنُّبُوة يزيده رِفْعةً على رِفْعةٍ، كما يَعْقِد الصِّلَةَ تَلْميحاً إلى صلة صاحِبِ الضريح بصاحِبِ الرسالة ﷺ.

وفي سنـة (١١٧٩ هـ)، وعلى عهد السلطان «مصـطفى الثالث» زلزلت الأرض، فَتَصدَّع محراب المسجد، ولمّا نُمِي الخبر إلى السُّلْطان أَصْدَرَ أَمْرَهُ بتَرْميمه.

وشاء السُّلْطان الذي تلاهُ في تَبَوّىء عرش آل عثمان أن يكون لهُ ثوابُ وفَخْر العناية بقَبْر «أبي أيُّوب»، فأمر بتجديد نوافذ الضريح السّتّ، وبابه الداخليّ.

---

(١) Ayverdi: Fatin everi Mimarisi S 216 Istanbul: 1953.

(٢) «أحمد تيمور باشا» ـ الآثار النبويَّة ـ (ص ـ ٦٥) (القاهرة: ١٩٥٥).

أما «سليم الثالث» فأعاد بناء المسجد بعد أن هدمه الزلزال الذي وَقَعَ عام (١٢١٢ هـ).

ولم يقتصر آهتمامه على المسجد، بل أَهْدى إلى الضريح مصْحفاً كتَبَهُ بِيَدِهِ جَدّه السُّلْطان «أحمد»، وزيَّنَهُ بأروَع ما آستطاع الصُّنَاعُ صُنْعه من ثريّاتٍ.

وعلى المسجد وقف نفائس الكُتُبِ، وشَيَّد سبيلاً بجوارِهِ.

وأمرت الأميرة «خديجة» ابنة السلطان «عثمان الثالث» ببناء دارٍ صغيرةٍ تجاه باب المسجد لتُدْفَنَ فيها.

☆ ☆ ☆

والذي يتحصَّل من ذلك أن السلاطين لم يَفَرّقُوا بَيْن مسجد «أبي أيُّوب» وضريحه في ضرورة إجلالهما والعناية بهما، على أنهما من آثار مُضيف النبيّ ﷺ.

كما أن مسجده إنما يَسْتَمِدُّ شُهْرَتَهُ ومنزلته الرفيعة العظيمة بفضْل القَبْر الذي يجاوره.

☆ ☆ ☆

وبِالْعَوْدَةِ إلى عَهْد السُّلْطان «عثمان الأول» الذي تنتسب إليه دولة العثمانيين، يُقال إن السلطان علاء الدين السلجوقي ـ الخوارزْمي ـ أيْقَنَ قبل موْتِهِ بأن دولة السلاجقة في آسيا الصغرى تسير في خُطى الإنحلال وفساد الحال إلى

شفير الهاوية، فأشفق من ذلك وأخذه الحزن، فآستدعى «عثمان» لما عرف عنه من رجاحة عقله وسداد رَأْيه، وآشتهاره بالشجاعة، ووكل إليْه أَنْ يقوم بالأمْر من بعده وأوصاهُ بإصلاح الحال وإقامة الْمُلْك على وطيد الدعائم.

وبهذه الوصيَّة أَوْرَث «علاءُ الدين» ـ «عُثمان» ـ مُلْكَهُ.

وكان «جلال الدين الرومي» ـ عظيم المتصوفة في «قُونية» ـ شاهداً على هذه الوصيَّة، ولمّا مات «علاء الدين» دعا الأمراء «عثمان» إلى تسلُّم مقاليد الحكم، ووضع «جلال الدين الرومي» التاج بيده على رأس «عثمان»، كما نَطَّقَهُ بالسيف.

وجرى عُرْف سلاطين «آل عثمان»، إلى آخر عَهْدِهم، حين يَعْتَلُون العرْش، أَنْ يَقْصِدوا إلى ضريح «أبي أَيُّوب» في «استانبول»، حيث يَشُدُّ وَسَطَهُم بالسَّيْف مَنْ ينحدر من سُلالة «جلال الدين الرومي»[1].

وهذا خَبَرٌ تُنْسَبُ به إلى أَصْلها عادَةُ السلاطين في قَصْدِهم إلى مسجد «أبي أَيُّوب» لتقلُّد سيْف «عثمان».

ونلاحظ قَوْل المؤرخين أَنهم كانوا ـ أي السلاطين ـ يَقصدون إلى الضريح لا إلى المسجد، ولنا أن نستنبط من ذلك صِلَة المسجد بالضريح في فِكْر مَنْ ذَكَرَ ذلك، فنحن لا

(١) تورْك تاريخي) د. رضافور. (ص: ١٥١ ، ١٥٢) (إيكينجي جلد، مجلد: ٢) إستانبول ١٩٢٤.

نعرف مَنْ قَال أن الحفْل كان يُقام في الضريح.

أَمّـا مَنْ يْقَلّد السلطان السيف من سُلالـة «جلال الـدين الــرومي» فهـو من يُعــرف بـ «جلبي أفنـدي» من دراويش المْولويَّة، وفي مدينـة «قونيـة» مركـزهم، ويُلَقَّب رؤساؤهم بـ «جلبي» نسبـة إلى: «جلب»، بمعنى الله، في التـركيــة القديمة، أو إلى كلمة صليب في العربية التي كانت تطلقها قبائل الترك في آسيا الوسطى على قساوسة النساطرة كَلَقبِ تعظيم لأنهم كانُوا من أَهْل العلم، ثم تطوَّر معناها فأطلقت على أهل العلم والفضْل من التُّرْك، وكان لَأتْباع هذه الطريقة الصُّوفية أثر في حياةِ التُّرك، لانتشار كثير منهم بَيْن طبقات الشعب ونَشْرهم مبادىء التسامُح والفكْر الحُرّ(١).

☆ ☆ ☆

وفي فَصْل بعُنْوان: قَرية تركية مقدَّسة للتُّرْك، يصف لنا كاتب أوروبي حفلِ تقليد السيف نقلاً عن تركيّ مُسِنّ شهِدَهُ على عَهْد السُّلْطان «عبد المجيد»، أي منذ قرابة مائةٍ وخمسة وستين سنة، فقال إن هذا الحفل شبيه بحفل تتـويج مُلُوك الإنجليـز في كنيسة «وسْتمنستـر»، ويرأسـه نقيب الاشراف ليفتتحهُ بقراءَةٍ خاصَّـة، ورئيس الدراويش المؤلَويَّة الملقب «جلبي» أفندي، يأتي من مدينة «قُونية» للإشتراك فيه، وَإنَّه

(١) Luke: The City of Dancing Dervishes Pp 11.22 (London) 1914.

لَحفْل لهُ مالَهُ من عظمة، وعليه ما عليْه من أُبَّهَةٍ، ثم يقولَ إن تلْكَ كانت صفاته، غير أن السلطان «عبد الحميد الثاني» جَرَّده بمقدار النِّصْف من تِلْك الصِّفات، ولم يشرح الكاتب ذلك ولا علَّلَه.

☆ ☆ ☆

ثم ذكر أن السلطان خَرَج من قَصْرِهِ محفوفاً بموكبٍ يجمع جميع أفراد حاشيتِهِ، وكان على جوادٍ سْرجُهُ من خالص الذهب، وغطاؤه محلّىً باللآلىء؛ ومضى السلطان في موْكبه إلى مسجد «محمد الفاتح»، وبَعْدَ أَنْ زار قبره اتّجه إلى مسجد «أبي أيُّوب» يتبعه عظماء الدولة، وشيْخ الإسلام، والصَّدْر الأعظم، وتَلَتْ موكبه عربات مذهَّبة مُزْدانة بزيناتٍ برّاقة، تَجُرَّها ثيرانٌ بيض، على قرونها الطوال خَرَزٌ لامع، وهي تُقِلُّ نساء الْقَصْر.

وكان المشاهدون الواقفون على جانبَيْ الطريق في حُشُودٍ وحُشُود، يستطيعُونَ رؤْية الخصْيان في ثيابهم الحمر المزرّكشة والباشاوات وفي طرابيشهم ريشاتٌ محلّاة بالجواهر.

ويكرّر الكاتِبُ قَوْله: إن أَقَلَّ القليل من مظاهر تِلْكَ الأُبَّهة تَبْقَّى حين تَوَلى السلطان «عبد الحميد الثاني» في السادس من أيلول (سبتمبر) ـ ١٨٧٦ ـ م؛ وإن شُوهِدَ حَمَلَةُ الرماح في

حُمْر الثياب المحلّاة بخيُوط الذهب وفي عمائمهم رِيشات ترتفع بمقدار ذراعيْن، وقد لبس شيخُ الإسلام قباءَةُ الأخْضر، والعلماء عمائم في بياض الثلج.

ثم يصف المشاهِدات فيشبههنَّ بالأزاهير، وقد بَدَتْ في كل موضع من المقابـر، وأَطْلَلْنَ على طُرقـات هذه القـرية العجيبة للأحياء والأمْوات[1].

☆ ☆ ☆

وَمِمّا قيل في السَّيْف الذي يتقلّده السُّلْطان أَنَّه كان يُختار من بَيْن عِـدَّة سُيُوف، هي: سيْف النبيّ ﷺ، و «خـالد بن الوليد» و «عمر بن الخطاب»، مِنَ العرب، وسيف السلطان «عثمان الأول»، والسلطان «سليم الأول» من التُّرْك.

ومن طـريف مـا يُـذْكـر أَنَّـه في عـام (١٨٠٨ م)، تقَلَّد السلطان «محمود الثاني» سَيْفَيْن في وقْتٍ معـاً، هما سيْف النبيِّ ﷺ على الجـانب الأيْمن، وسيف السلطان «عثمان» على جانبه الأيْسَر.

☆ ☆ ☆

ومع الرحّالة التركيّ القديم «أُوليا جلبي» نُلْقي نَظْرةً على الضريح والمسجد، قال:

إن «الفاتح» أقـام هذا المسجـد، ووهب ثوابـه لـ «أبي

(١) Davey: The Sultan and his Subjects. PP 433, 424 (London 1907).

أَيُّوب»، وقد سُوِّيت الأرض على شاطىء البحر قريباً من عَتَبَتِهِ.

ولهُ محراب ذو قُبَّةٍ، وفي طرفه نصف قُبَّة، غير أنها ليست عظيمة الْارْتفاع، ولا وجود في المسجد لعامُود، ومحْفل السلطان في الطرف الأيمن؛ وعلى باب القبلة لوْحة من رُخام رقم فيها بخطّ جليّ هذا التاريخ: حَمداً لله لقد أَصْبح هذا البيت مَعَمُوراً.

وله منارتان، إحداهُما في الجانب الأيمن والْأخرى في الجانب الأيْسر، وأطراف حرمه الثلاثة محاطةٌ بحُجُراتٍ.

وفي الوسط مقصورة للمصلّين، وبَيْن المقصورة وقَبْر «أبي أيُّوب» دَوْحتانِ فرْعُهُما في السماء، يتعبَّد المتعبّدون في ظلهما، وفي طرفي حرم المسجد صنابير للوضوء.

☆ ☆ ☆

وفي «استانبول» أَلْفٌ وثمانُون مَسْجداً غير هذا المسجد.

وإلى جانبه مدرسة «أبي أَيُّوب»، وأكثر من دارٍ للحديث ودارٍ للقُرّاء، ومكتب للصبيان، وعِدَّة زوايا وخاناتٍ، ومبرَّة يصيب من خَيْرِها ونعيمها الرائح والغادي.

وإلى جوار تلْك الأَبنية حمّام «أيُّوب» الذي ابتناه السلطان «أبو الفتْح»، وهو من قسميْن أحدهما خاص بالرِّجال والآخر بالنساء، وماؤه عذب زُلال، يرشفه المرْضى فيمسح الله ما

بِهِم بأنفاس «أبي الفتْح»، كما أقام السُّلْطان «أحمد» في حَرَم «أيُّوب» سبيلاً.

ويقول «أوليا جلبي»)

إن مدينة «أيُّوب»[1] طيِّبة الهواء يقطنهـا كثير من أعيـان القوْم وأشرافهم، بَيْد أَنَّ معظمهم من العلماء.

إلى أن يقول:

إن الطير يعرف الواحد منها بـ «مالكٍ الحزين» تعشْش في شجراتِ حَرَمِ المسجد، وتؤثر قُبَّته في رأس كل عام بريشتَيْن من ريشها تهديهما إليْها[2].

☆ ☆ ☆

---

(١) يقصد الضاحية.

(٢) (سياحة تامة) - (أوليا جلبي) - (ص ٣٩٦، ٩٧، ٤٠٠) (برنجي جلد) (استانبول: ١٣١٤).

كلمة أخيرة

وبعد،

فإني أَرْجُو من الله تعالى أن أكون قد وُفَقت فيما عَرَضْتُ له، ثم أدَّيت حقّ «أبي أَيُّوب» ـ رضي الله عنه ـ عَليَّ وعلى التاريخ.

وإن أَكون قد قصرت في ناحيةٍ فَمِنْ عندي ومن نَفْسي.
وعُذَري في ذلك أنَّ الكمال للهِ وَحْدَه.

والله تعالى يتولى الصالحين، والحمدُ للهِ رَبِّ العالمين

الفهرس